

الطائر الحائر

جميلة محمد العبداني

١٩٣٥

مطبعة وادي النيل بميت عمر

تحيية

أهلاً « جميلة » بالحياة كما رأت عيناك
فيها معان تستطاب فأيتها معنك ؟
حللت ألوان المحبة والجمال الأسر
وشرحت قصة طائر بين المفاتن حائر
ووصفت أطياف التناجي والعذاب القاسي
ومظاهر الحرمان والآلام بين الناس
هذي هي الدنيا كما صورتها للفنّان
لهفي على الزهر الجميل من المهجير القاتل !
لا يسأل الفنان عن آرائه ورجائه
بل يسأل الفنان عن إعجازه بأدائه
وأراك فاتنة العواطف بالخيال الساحر
أنفاس شاعرة لها أنفاس وحي الشاعر

احمد زكي ابو شادي

الاهماء

الى ...

أبناء النور والحرية

ودعاة الاصلاح وأعداء العبودية

وربات الفن اللائى يوحين إلى كل معنى سام

مستحيل

زارتني منذ أيام صديقة تحبني حبا جما : زارتني وقد
رسم الحزن العميق على محياها سمات الألم الدفين ، فاضطرتني ذلك
إلى تعرف دخيلة نفسها وإن كانت هي بعد أن هدأت بجوارى
وأنست بي لم تر غضاضة في أن تبثني خبيئة نفسها عل في البث
ترفيها وارتياحا

وقبل أن أفضي اليك بحديث الصديقة ، أريد أن أصور
لك في غير مبالغة صورتها لتبدو أمامك القصة في ضوء أوفى ،
وصراحة أبهى ، وإني لأستميحها العذر في اظهار سرها الدفين
وعصارة قلبها الأليم وشفيعي لديها تلبية نداء الفن الذي وقفت
حياتي ، وجهودي عليه

وان ثقتي برحابة صدرها ، وسماحة خلقها لكفيلة لي بأن
أصرح بحديثها دون خشية عايرها أو حذر منها

وورثت عن أبيها حب المرح والحياة والكبرياء والألفة وقد
تعجب كيف تجتمع الكبرياء الى السذاجة والهدوء الى الثورة
والتحفظ الى الدعابة والثورة الى اللين ، ويحسن أن تعلم أنها على
جانب لا يستهان به من الثقافة الروحية وأن هذا الجانب الروحي
يفوق علمها المكسوب وهى ذكية الفؤاد ناضجة الفكر نسيجة
الخيال قوية العاطفة .

نشأت فى بيئة مصرية صحيحة وفى بلدة يقولون عنها إنها
مدنية العلم والنور ، ولكنها ألفت الهدوء وأحبت الوحدة . كما
عودتها أمها ، ولقد أهاب بها هذا الهدوء وهاته الوحدة الى الذكر
والخيال . الخيال الذى حملها الى الطبيعة ، والطبيعة التى دفنتها الى
حب الفن العتيذ حباً ملك عليها حواسها حتى أصبح وكأنه شىء
محسوس ماموس ترغب فيه وتنشده ، وقد سطى هذا الحب على
الروح المادية فيها فقتلها فتعلقت بأذيال الجمال والحرية وان
اعتقادها فى الزواج ليخالف ما تواضع عليه الفتيات جميعاً فهى لا
تنظر الى الزوج من حيث غناه أو فقره ولكنها تطمع فى أن

يحبها الحب كله ، تطمع في أن يكون ذكي العقل كامل الرجولة
قوى الحجة حساس المشاعر قادراً على أن يهيء مستقبله كما تـرجو
هى له وما تـرجو له الا أن يكون أعظم رجال العالمين وهى تعتقد
أن فى قدرة المرأة أن تخلق الرجل خلقاً جديداً ، بل أنه ليحلو
لها أن تكافح فى سبيل تحقيق مثله وإلا فما وظيفة المرأة فى المجتمع
البشرى اذا كانت حياتها لا تتميز عن حياة الحيوان الولود ؟ ...

يجب أن يكون لها رسالة خالدة تؤديها عن طريق نفسها
ان استطاعت أو عن طريق الرجل الذى قدر له أن يشاركها الحياة
وعلى هذا الأمل ومن أجله تعيش فى محيط هذه الحياة .

أما بعد : فتلك هى صورة الصديقة بطلة « الطائر الحائر »
ولعلها أروح مما ذكرت ، فقلبها المليء بأسرار الكون لا يبيع
لأى انسان أن يسبر كنهه أو يدرك مداه .

وحسب القارئ العزيز تعريفاً ببطلة القصة ، هذا الرسم
الطائر بما فيه من خطوط وألوان وظلال .

قالت صديقتي :

دعني صديقة أعرف بميولي ، وأحب الى نفسي من غيرها الى نزهة خلوية وكانت طبيعتي في ذلك الحين خادمة بها عزوف عن المرح والعمل لذلك لم أر غضاضة في مرافقتها تلبية لمشيئتها فمسي أن أجد في اجتلاء المناظر ومشاهدة مباحج الطبيعة الفاتنة ما يرفه عن نفسي ويجنح بها الى حرية الفكر . ولقد كان بصحبتنا في هذه النزهة أخوها وخطيبته ذهبنا جميعاً الى حديقة غناء اختارها الأخ لقلّة اختلاف الناس اليها كثيراً ومع أنها كانت أشبه بالمهجورة فقد كانت علي احسن طراز للحدائق الغناء وكيم في الحدائق من معان للجمال والسحر والفتنة ! فالطبيعة وحدها على ما أظن . هي مصدر الفن وحسبها أن توحى لنا بما وراء الجمال الذي لا يدرك ولا يحد . الجمال الخالد فالسماوات تلو الطبيعة غيرها

في كل مكان نهى تنقل الينا رسالة مليئة بالأسرار ولوانهاالت
اسرارها مطراً لحاكت هاته الأمطار . قطرات تبدو كأنها
لا شيء ولكنها تملأ الأنهار لتروى كل ظامىء من الناس
والحيوان والأطيّار .

إن الطبيعة معجزه الله بلا ريب . معجزة صامته
الحانها ومعانيها في أرج نسيمها ، وفي عطر ورودها ولعلها
تحيات مليئة بالبهجة والمسرة والأمل ترف علينا في شبه
نسائم سيقت من قبل الأله الجليل لتزيد في نشوة الضاحك
المجدود وترفه عن البائس المنكود .

أجل ترفه عنه بهذه الأشجار التي انكشفت عنها
الطبيعة بين ساعة فرح تحت ضوء الشمس البهيج وبين ساعة
حزن في كنف الظلام فجاء بعضه مزهراً بأغصانه وثماره
وبعضه يجاثل الحرمان في عمره ومآله .

وهكذا لبثنا بعض الوقت نمرح غير عابثين ، وننساها في
أدب رزين ، ولقد أحسست أنا وصديقتي برغبة في الانفراد

تختلج بصدر الخطيبين فأفسحنا لهما المصكان حتي يتمتعا
بنسمات الحب السنى وليحتفلا على انفراد يساعات من عمر
الخطوبة الهنيء . ورغبت الى صديقتي أن نختفى للمرح كما
يحلوا لنا في طلاقة الطفولة التي فاتنا عمرها وما زلنا نحن اليها
ونرغب فيها . وهناك في كنف بعض الأشجار وتحت ظلالها
المتناسفة في تألف جميل بدأنا تنلهى بالتندر والمداعبة آنأ
وبالتحدث آنأ آخر ولكن سرعان ما هروول اليها الخطيبان
كصفورين وديمين على وجه كل منهما ظاهرة تخالف
الأخرى ، لقد كانت الخطيبة كثيرة المرح لينة الدعابة تلتمع
في عينيها أضواء الحب المتقد ويرف على شفيتها سحر بسمة
تكاد تنطق بعذوبة الأمل الجميل وهى فوق ذلك على حظ
كبير من سحر الأنوثة وجمالها كما أن السداجة كانت تعلو
جيدتها وتبدو في ألفاظها لأنها لم تنل من التعليم قسطاً وثيراً
أما خطيبها فكان على عكسها ، فقد نال من التعليم
أقصى ما يناله الشاب في مصر ، حتى غدا ناضج العقل معتداً

بنفسه لا يلفت ظاهره عيون الحسان اللأئي يألفن جمال
الرجل وهو سريع اللفتة والنظرة هادئة النفس ، دائم
الصمت والتفكير ، وقاما يؤخذ بظواهر الأشياء ، ولكنه
عذب الزكوة حلو الحديث ، يحب الطبيعة ويتحدث دائماً
عن مفاتها بلباقة فائقة ، وكما كان يتمنى أن يكون فناً كما
يعترف ، فيصور كل ما يحلوه ، ولكن الحياة كانت عليه
جد صنيعة ، فطغت على مواهبه في بدئها على حد تعبيره ،
وصرفته مرغماً عن نواحي الحياة الفنية الى أضوائها المادية .
وها هو اليوم يعاني من كبت أحاسيسه المأهراً لا قبل له
على احتماله ، ولعل هذه الظاهرة الأليمة التي تملك عليه حسه
هى من قبل حرمانه الفني ، ولم أجد مندوحة من تعرف ما
صعب على ادراكه عن طريق الأخت فعند ما خلوت بها
سألتها ، ما الذى حمل شقيقك على مجانبة خطيبته مع أنك
قلت على ما أذكر مرة أنه خطبها عن طريق الحب ؟ فكيف
تعرف بها ؟ فتلفتت قبل أن تجيبني يمنة ويسرة كأنها تخشى

اباحة سر أو شبهه ، وبصوت خفيض كالخذرة قالت : في مساء يوم كان أخى فى طريقه الى منزله وعلى ما يذكر كان الظلام شاملا والدنيا يكتنفها سحر الهدوء ويدنا هو جاد فى طريقه حملت اليه أجنحة ذلك الهدوء صدى موسيقى سحرية خافتة حملته على مواصلة السير متتبعا مصدره حتى بلغ نافذة ينبعث منها ضوء خفيف له روعة فنية ، استوقفه هذا المشهد فظل واقفا ساهما يستمع الى الموسيقى بقلب ذاهل واولا الشرطى الذى نبهه لنسى نفسه وما زلت اذكر صورته المهيبة فى هذه الليلة عندما دخل علينا فقد بدا أمامى كأنه ضيف غريب يطوى بين جوانحه سرا غامضا ومنذ هاته الليلة تغيرت أحواله وأحب الخلو بنفسه ومع أنى كنت أرى فى عينه ما يضطرم فى صدره ولكنى كنت لا أجرو على التدخل فى شئونه لأنه لم يعودنى ذلك ، وأخيرا طلب الى أمه أن تخطب له « بنت فلان » أعنى هذه الفتاة . وتم له ما شاء وكأنه امتلك ناصية الكون فكان أبدا فرحا

راضياً عن دنياه ، وذات مساء ذهبنا جميعاً لزيارة الخطيبة
وكانت هذه أول مرة يلقاها الخطيب فيها بعد اعلان
الخطوبة وطلب منها أخى أن تعزف له لحناً . فأبت زاعمة
أنها لا تجيد العزف فظن أخى ذلك التمتع منها خجلاً وحياء
فألح وألحف وظل بها حتى حملها علي العزف . وما كادت
تداعب اوتار المعزف بأناملها حتى تملكنا شبه ملل . لأن
عزفها كان اشبه بنقر النحاس وفي هاته اللحظة جاءت زائرة
فانتشت العروس وقدمتها لنا قائلة : « معلمة الموسيقى »
وطالبت ان تعزف لحناً ترضية للخطيب . وما كادت اصابعها
تداعب اوتار المعزف حتى انتقلت بنا جميعاً الى عالم سحرى
فاتن واستطاعت بمهارتها ان تداعب قلوبنا جميعاً وبذل ان
يستمتع اخى استأذن وانصرف وحده وقد لحت شبه غمامة
انتشرت على وجهه لم افهم معناها . ومن هذا التاريخ عاد
اخي غير مرح كما كان من قبل ، وتضاءلت مشاعره
وتلاشت عواطفه او كادت ، ولزم الصمت الأليم ، وبات

لا يحدثنا عن الزواج والعرس كما كان يفعل من قبل .
بدت الحقيقة امامي رهيبه فاستويت بعد ان كنت
مضجعة على العشب وقدتها الى مكان آخر بعيد ثم همست
في اذنها : عله احبها من اجل الموسيقى . فلما اصطدم
بالحقيقة تضائل حبه لها ولعلمها جادة في التعليم على ما اظن
وغدا تكون عند حسن ظنه بها وخير له ان يفكر عن طريق
عقله وقلبه ولا يترك حرية التصرف لخياله . وهنا لمحتها
مقبلين ، فتضاحكنا كأننا نتسامر في حديث لا شأن لها
به ، واستويت مسرعة أرحب بمقدم الخطيبة ولكنها قبل
أن تجيبني خاطبني هو : لم تركتنا هناك وجئت الى هنا ؟
قلت : اترك لكما مجال الحرية واحسبنا مخطئين في ان
نرافقكما في وقت انما احق فيه بالجماعة والافراد . فعمر
الخطوبة كما يقولون اهنأ الأعمار . ومن العبث ان يسهر
الخطيبان عنه حتى يمر فلا ينالا منه ما يحلو لهما من هناءة ولم
أكد انهى من قولي حتى نظر إلى نظرة عميقة فهمت منها

بعض ما يستلج بصدره وقد تفاقل عن دعاية الخطيبة التي
لمست كتفه في رفق ونظرت اليه في حنان ثم ابتسمت في
براءة وخاطبته : إن الحق ما نطقته فلعلها مخطوبة و ...
فقاطمها موجهها الحديث الي : أحقاً ذلك ؟ فقلت في حياء ،
كلا . وكأن هذا النفي قد أَرْضَاه فابتسم في غبطة ثم نظر
الى نظرة أخرى فهمت منها ما يضمره ولا يقدر على التفوه
به وإن عين الرجل كثيراً ما تكون أسبق الى التعبير من لسانه
وابتعد عنا قليلا فظنناه يريد أن يتمشى وحده ولكنه عاد
ويده زهرة بيضاء وفي ابتسامة غامضة قدمها الي فابتسمت
كذلك في غموض وقلت : أئجل الرجل ، هأنذا لأول
مرة أعرف ذلك ! أو تريد أن اكون واسطة بينك وبين
عروسك ؟ ثم مددت يدي بالزهرة اليها . فقال : بل اقدمها
اليك لتصفيها قلت : انظر الي عروسك تكشف لك ما
خبأته الزهرة ! إنها تحاكيها . قال : اسنا في مجال مناظرة
ولكننا في مجال مواجهة قلت : أوه . فاتني أنها زهرة خالية

من العطر وعروسك وردة لها عطر ولعلك خشيت أن
يسرى العطر من الورد الى الزهرة إذا لامسه وأنت تريد
ان يكون العطر لك وحدك أليس كذلك ؟ ونظرت إليه
كأنى أقول له : صدقنى ! قال ليكن ذلك أو غيره ولكنى
أرجو ! قلت : أن تحفظ لك وردتك غيرها .

فانغماظ منى كما بدالى وقال بصوت متواضع : يا آنستى
فابتسمت وقلت : لا تغارى ! أتحسبنى كذلك ؟ لا تظن !
فأسند ظهره على جذع شجرة وارفة كانت بالقرب منه ونظر
محلّقاً فى الفضاء ثم رد نظره عاجلاً وقال بودى أن اكون
طائرًا وقبل أن أجيبه قالت الخطيبة : لو كنت طائرًا كما تروم
لرجوت ان تكون إنسانا فلم يأبه لردّها وظل ناظرًا الى متروقبًا
كلامى . قلت وأنا أنظر الى الخطيبة وأوجه اليها الحديث
وهكذا كل ممنوع محبوب ثم التفت اليه وقلت : وردتك
تعرف الحقائق فارتشف من منهلها لتصل الى محط الحكمة
عن طريقها . فبدت على وجهه علامة عدم الارتياح وقال

بصوت خفيض وردتي . وردتي . فنظرت الى العروس
وخطبتها . الاتجيين ؟ انه يناديك فتخضب وجهها ومالت
في دل فائن ثم نظرت إليه في استحياء يكاد يقتلها ، ولكنه
تجاهل نظراتها وراح ينظر بعيدا كالطفل الذي يبحث عن
نقطة ارتكاز السماء وكنت قد وليت وجهي وحاولت النظر
بعيدا حيال خاطر طاف برأسي ولكنه انتشني من خاطري
بقوله أعتقد أن المرأة تحب الطيور كحب الرجل الزهور
والورود . قلت وقد نسيت نفسي ، المرأة تحب الطير ،
لأنه قادر على تبليغ الرسالة العاطفية عن الزهر والرجل يحب
الزهر لأنه يألف صمت المرأة وحياءها ، قال ولكن هل
كل الطيور محبوبة قلت قد تكون كلها محبوبة لأن لكل
فتاة مزاجا خاصا ، فأنا مثلا أحب الطائر الغريد الذي يألف
الفضاء الواسع فيظل محلقا هائما لا يهبط الى الأرض ، اما
الطائر الذي يهبط ففي يقيني انه اضعف الطيور ، فيبدل ان
يجيني اشار بيده الى السماء وغمغم بكلمات خافتة لم ادركها ،

وتركنا وسار وحيدا في طريق معوج مليء بالحصباء ودقاق
الحصا فاستوقفته عروسه وقالت هذه الطريق وعرة فأجابها
دون أن يلتفت اليها إنه ليحلو لي ان أقطع الطريق الوعة
لأعرف معني الحياة ، قلت وأنا ما زلت في موقفي ، ولكن
الحياة بقرب عروسك أروع مما عداها قال حسبك وتخلص
في غير لطف من ذراع خطيبته وعدا بعيدا ، فاقتربت من
الخطيبة وهمست في أذنها ، ألا تتبعين خطيبك ، إنه يدعوك
في حياء ، فتبعته دون كلمة تتعثر في ثوب الخجل والخلاء ،
ولكنها عادت مسرعة والدمع يترقرق في مآقيها قلت ماذا
بك ، قالت انه غاضب يا أبي مكالتي ، فقالت شقيقته عجباً ،
علك أثرته عليك قالت لا ، جئته فوجدته مطأطئ الرأس
ولما خاطبته تأفف مني ولم يجب ، قالت شقيقته هيا نذهب
اليه لتعرف الحقيقة ، ولما انتهينا اليه لم يأبه ، ودنونا منه فلم
يلتفت وسألناه فلم يفه وتأوه في سكون ، قلت وأنا احاول
ان اكون كالطفلة البلهاء ، في عينك دموع أتبكي ؟ عجباً

وقاطعتني شقيقته وخطيبته أمريض أنت ؛ قال ليتني وهو
يصدق نظره في قلت إذن علام ؛ قال سلى الطبيعة تنبيك
قلت وليكني أسألك ، وواريت نفسي خلف بسمة معتصبة
ثم استطردت ، كان في مقدورك ألا تصحبنا إن كان ثمت
أفكار تلهيك وفي مقدورنا أن ننسحب ونترك لك هاته
الطبيعة الفاتنة لتعم بها بقرب عروسك الساحرة فتأفف وقال
أما يكفيك ؛ قلت إن عيبي هو صراحتي ولا قدرة لي على
ملافاة هذا العيب خاصة في مثل هذه الساعة ، وأنت شبه
حزين وعروسك من فرط الحزن عليك تكاد تبكي وشقيقتك
من هول اللوعة قد خامها النطق وما أنا إلا معبرة عنهما لا أقل
ولا أكثر ، وأن الرحمة تقضى بأن ترعاها وقد جئت بهما
لترفه عنهما متاعب الحياة المنزلية الشاقة الخائقة فلماذا تبدل
كرمك سنخطا وإنه ليجميل بك أن تلاحظ عواطف الأنوثة
الرحيمة فتكلف بسمة وقال أو تعرفين العاطفة قلت بلا ريب
قال ليتك قلت هل أخطأك الحزن أم أخطأك النظر ؛ واحد

من اثنين ، اما أن يكون نظرك مخطئا نخطبتي أو خاطرك
طاف بها وظننتني إياها ثم حنوت على العروس وربت على
كتفها وقد كانت تائهة فيما لأأمامه ولا أدريه ثم قلت رفهي
عنه أو لم تسمعي كيف يناجيك ويستعطفك عن طريق غيرك
جفني دموعه بيديك الناعمتين فإنه يود عطفك فتعطفت
عليه في وداعة وطوقت عنقه بذراعيها العاجيتين وانظرت
اليه في ابتهاال ولكنه صدها عنه بلاشفقة ، وغمامة الحزن
تعلو وجهه دون كلمة ، ثم اسرع الخطى وذهب الى حيث لا
ندري . اخذتنا الحيرة في أمره فالشقيقة ما بين مشفقة ولائمة
والعروس من فرط الحزن والألم تكاد لا تعرف كيف تتحدث
عنه أو اليه أما أنا فأدركت بعض ما يختفي وراء صدره ولكني
كنت حائرة في أمره وخشيت أن تلمح على العروس أو
الشقيقة ظواهر الحيرة والاضطراب ، فتعمدت التجاهل
والثبات ورحت أسأل العروس في رفق ، هل أسأت اليه ام
تدلت عليه . فقالت لم يحدث ذلك ، ولن يحدث لأنني أحبه

فبلغ اعترافها من قلبي مكاناً عميقاً وحز في نفسي ووددت لو
أفدى اعترافها بدمي فداء لتحقيق أملها وأهبتها أن تذهب
إليه ففساه أن يهدأ ولكن سرعان ما عادت إلينا وقد فاض
معين حزنها أكثر مما كان ، ثم ذهبت الشقيقة ورجعت
وكان نصيبها من الهم نصيب عروسة أو يزيد وأخيراً ألحت
على أن أذهب إليه ففساه أن ينجلى ويحترم رغبتى فيصرح
بما في نفسه أو يعود إلى مرحه واقترحت عليهما أن يصبحاني
ولكنهما أبثا مد عيتين أن احترامه لشخصي قد يؤثر فيه ،
وقد يكون عنده ما لا يريد أن يصرح به لهما خوفاً عليهما
من الحزن واحتراماً لرغبتهما ذهبت إليه ولم أكد أقرب منه
حتى هالني جلسته على هيئة حزينة ، وقد ارتسم على وجهه
صورة الاضطرام المكبوت ولما لحني حاول أن يوارى حزنه
وتكلف الهدوء ونظر إلى باسما دون كلمة ففاجأته لقد جئت
هنا الآن تحقيقاً لرغبة عروسك وأختك ورحمة بهما ، فإن
الحزن لك كاد أن يهد قواهما ، ماذا دهاك على غير انتظار

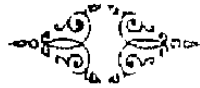
وأنت خير مثال للعقل والرحمة فوقف واجهاً ، وقبض على
غصن قريب منه وداعبه متلهياً به عني على ما أظن قلت :
شكراً لك ، هكذا يكون الوفاء ، ألا هيا معي إليهما فلم
يتحرك وظل صامتاً ، وبدأت على شفتيه بسمه يوج فيها
شعور ثائر فاستطردت : تقدم فابتسم بسمه عريضة ارتفع
صوته في نهايتها على نعم مرح وقال : هه أظننتي قد وقفت
رغبة أن أعود معك إليهما ؟ قلت بلا ريب ! قال : لا بل
أيقظني العبير لما دنا فانتشيت ! عرفت من عينيه ما يرمى
إليه ولكنني تجاهلت وقلت ، ولكن هذا المكان أشبه ما
يكون بالغابة فلا زهر فيها ولا ورود ولا رياحين بل كل ما
فيها طيور تهيم هنا وهناك ، قال ولذا فضلتها عن سواها ،
قلت ولم اذن تحلم بالطر ؟ قال لأنني ارجب فيه ، قلت ولم
تركته ؟ قال بصوت يحفه العجب أنا ! لقد عكست الآية
أحدث الجفاء من رجل قوى قادر ، إن جفاء الرجولة قسوة
لا مبرر لها ، أما جفاء الأنوثة ففيه دلال مستحب يشفع له

فولى توجهه عنى شطر طيور كانت تحوم حول شجرة
بالقرب منا ، وقال بصوت مرتجف خفيض ، أما وإنك
تجيبين الحقيقة بنقاب النموض ، فلتدعيني هنا اذن وحدى
وأشار بيده فى بطاء الى مكانه وحمقى بنظره حيث الطيور
فاغتصبت بسمة وقلت : أظنك ترغب فى مشاطرة الطيور
الحائرة ، فاتجه نحوي بكأيتة وردد : نعم نعم لأنى واحد منهم
قلت فى عجب ! أطارر حائر أنت ؟ فلوح بيده مؤكداً وقال
بصوت غير رقيق طائر حائر هو أنذا ، قلت فى هدوء اخترت
لنفسك هذا اللقب فأنا به من الآن أناديك قال اكون سعيداً
لو فعلت قلت اسمع اذن ياطائرنا الحائر هناك حمامتك الوديمة
تنتظرك فتعال إليها لتطيب لك الحياة . قال الطائر لا يفهم
لغة البشر ، واحد من اثنين إما أن تخاطبيني بلغتى أو تدعيني
أخاطبك بلغتك قلت ما دامت اللغة تؤدى الى الغاية المرجوة
فلا مانع من استعمالها ، قال حسناً ! اذن تعالى نتفاهم ،
قلت ولكنى جاهلة لأنى لم أعرف لغة الطير فحدثنى بلغتى ،

قال هذا عيبك ، تدركين وتتجاهلين كلانا حائر هكذا يبدو
لى ، ولكن حيرتك مركزة على الرغبة وحيرتى مركزة على
الاضطراب وشتان ما بين الحيرتين ، أنا أحرار فى تفهم العالم
لأنى لا أفهمه وأنت تحارين بين ما تريدينه لنفسك وما يريده
القضاء لك قلت هذا عيبى وعيبك أنت ، أنك تخلط بين
الخيال والحقيقة فشلا تخاطب عروسك عن طريقى وتخاطبنى
عن طريق عروسك فتأفف وقال لقد أطلت فيما لا أرجوه
إن القلب الذى أرجوه يتجنبنى أفهمت ؟ قلت يا ظامك إنها
لم تضمن عليك بما ترجو فلا تقس وهبها تدلت عليك ، أو
ليس هذا هو حافز الرغبة فيك ؟ إن فلسفة الأنوثة تقضى
على المرأة ألا تستسلم استلاماً مطلقاً بل تحرص على أن تأخذ
اليوم أكثر مما تدع لتعطى فى الغداة أكثر مما أخذت ،
فنظر إلى نظرة عميقة وبدا فى عينه التماع شعور ثائر صامت
ثم أشار لى بالجلوس فأيت أن ألبى هذه الرغبة ولكيلا أدع
له مجالاً فى الاسترسال قلت لو أنك كنت قد خرجت معنا

غير راض عن نفسك لاغتفرنا لك هذا الحزن ولا لتمسنا له
تعليلًا مريحًا أما وأنت قد خرجت معنا خلى النفس إلا من
سرورك فلا شك أن حزنك وليد الساعة ، قال هو ذاك ،
قلت ولم ؟ قال ليس لي بذلك علم قالت عله الطرب ! الطرب
أشجاك فأبكاك ! قال ليت ذلك ، قلت وماذا يعوزك أكثر
من حب عروسك اللطيفة فتأوه وقال لا تحاولي قتلي ، قلت
أو تشك في حبها ما أقساك ! قال لا يهمني ذلك ، قلت
أتعتمد الخيال ؟ إياك ! ثم لزمت الجد ورجوت أن يسرع
اليهما وأبدت أسنى لطول المقام ، ولكنه أبى وأصر على
الانفراد بنفسه حتى أجيبه على سؤاله وأدركت من عينيه ما
يجيش في صدره وخشيت أن يضطرنى الى هتك كرامته
فانسحبت وكأني لم أسمع له قولاً ثم تركته وأسرعت اليهما
فوجدتهما على حال من القلق الأليم ، وقد اضطرت أن
أحجب عنهما الحقيقة لأحملهما على الهدوء الفكري وصحبتهما
اليه وأنا أقول في طريقنا اليه إنه يخلو بنفسه لأنه يشاء

أن يكون شاعراً وظاهرة الشاعر شذوذه احيانا وميله الى
الافراد بنفسه ليكيف ذهنه ومشاعره بجمال ما يبدو امامه
ولما اجتمعتنا به ظلمت اداعب هذه وأضاحك تلك وأهيب
به الى مكالمتهما حتي استطعت أن اعيد الى سمائهم ظل المرح
المهارب ولكنه كان يفر من الضحك ويواري نظراته خلف
فكره الشارد ويعمد الى التجول بين الرياض النضرة وقبل
ان يتخطى الوقت عتبة باب المساء رأينا ان نرجع حينما رأيناه
بشعر بدوار في رأسه ولكنه ابى إلا ان يودعني وحاولت
ان اصرفه عن عزيمه فأبى في هدوء ولما وصلنا الى المنزل
عرضت عليهم أن يستريحوا من عناء الطريق فأبى واصطحبهما
وانصرف بعد ان حياني تحية محتشمة ظاهرها الجفاء .



خلوت بنفسي وتركت خيالي يجوب آفاق الآباد
وأنا شبه ما يكون باغفاءة الحالم ، فرأيت فيما رأيت من
اطياف ، طيف الخطيب الذي أسميته كما شاء الطائر الحائر
رأيته كما شاء ان اراه ورأيت بونا شاسعا بين صورتين ، بين
الصورة التي يريدني ان انظر اليها والصورة التي اراها بعيني
رأسي ، صورته وهو حائر كما يظن وصورته وهو غادر كما
اظن وشتان ما بين الصورتين وتساءلت ، أيمكن الفرد ان
يكيف مشاعره كما يهوى ، ام ترى الأحياء تسير خلف
اهواء القوة اللامعة غير المدركة مجبولة ؟ وافترت شفتاهاته
القوة الهائلة عن بسمة عريضة فهمت منها اننا جميعاً عبيد
المطامع تواتينا من قبل الغيب المجهول ، وبجانب طيف
الخطيب تجلت لي صورة الخطيبة فرأيتها واقفة على باب
الأمل البهيج تحلم بمستقبلها الهنيء ، وتتخيل ايامها المقبلة على

احسن ما تتمناه ، بينا القدر ينسج لها وشاحا غامضا قد
يلقيه عليها وشاحا لم توحد ألوانه ولست أدري إن كان ناعم
الملمس أو خشنة يصلح لتجملها أولا يصلح ولكن الخطيبة
تعتقد أنه وشاح السعادة والهناء وحيال هذا الخيال انتابني
شعور غامض وساورني هم لا اعرف سبيله ولا مأتاه ووددت
لو اتيح لي من القوة ما يؤهلني للانتقام من القدر الذي يجمع
في دقيقة بين قلبين على غير ارتقاب ويفرق في لحظة ما يجمع
بعد طول غياب ووددت ، ولكن هيهات ؛ ولم تمر ايام
قلائل حتى جاءتني الصديقة حزينة كئيبة وراحت تقص على
انباء اخيها ، وكيف جنح الى العزلة وحاولت ان تثبت الى
من وراء حديثها ما يكنه لي صدر شقيقها حريصة على الا
تنوه عن علاقته بالخطيبة وقالت فيما قالت انه يريد ان يتحرر
من هاته الخطوبة ، لأن عواطفه لم توافق عواطف الخطيبة
وقد ندم على انه اقدم على الخطوبة دون ان يتأكد من توافق
ميولهما ورغباتهما ، وانه سار خلف خيال خاطيء .

كانت تتحدث بصوت حزين ، وكنت استمع اليها والبسمة
لم تفارق شفتي بسمة السخرية والمحب حتى لمحت الصديقة
بسمتي الفاترة التي لم تألفها مني ، فبادرتني لماذا تبسمين ،
أهناك ما يدعو لك لهاته البسمة الفاترة ؟ قلت اجل تصرف
أخيك ، لقد جرى خلف خيال خاطيء كما تقولين ، ونسى
انه قادم على دنيا جديدة واقعية لا خيال فيها ، لست افهم
معنى لتصرفه هذا ، وعلام يندم ؟ اكان يظن أن من تجيد
الموسيقى تجيد سياسة الحياة او انها من الجمال الخالق والنفسي
والجسمي ؟ قد تكون ولكنها ليست قاعدة على
كل حال ، قد تظهر الموسيقى النفوس البشرية ، لست
انكر ، ولكنها ليست دليلا على كمالها او نقصها . الا يصح
ان يلعب الموسيقى بالنار كلعبه بالأوتار ؟ يخيل الى ان كل
تصرفات أخيك غير مركزة على الفكر الصحيح ، وانه دائما
يسرى وراء خيال خاطيء ، خطيئته لا عيب فيها ، ذهبية
الشعر ، زرقاء العينين ، ذات بشرة بيضاء ، ولها قوام أهيئ

غض رشيقة رقيقة وديعة طيبة ساذجة طاهرة وأنا اعتقد
ان هاته الصفات كفيلة بأن تحببه - اذا ألفها - في الحياة وأنا
واثقة أن أخاك سوف يندم في الغداة اذا تخلى عنها اليوم ،
لأن الحقيقة لا تلمس بالعين المجردة عن الخيال إلا اذا فقدناها
وهو اليوم أسير أخيلة غير مدركة ، سوف يتألم عندما تجر
عليه ذيلها ويواجه الواقع ، كانت تستمع إلى واطياف الغموض
والحيرة والألم تبدو ملتمة في مآقيها ، وشاءت أن تدافع عن
أخيها ، ولكن رهبة الواقع خانتها فهزت رأسها في غير
اكتراث ، كأن كلامي لم ينل من قلبها مناله ، وودعتني
على أمل أن نلتقي قريباً .

وظللت طوال الليل أطوف بذهني عند محط الطائر
الحائر ، راسمة لكل صورة معني ولكل معني قصة وصحوت
مبكرة استلهم الفجر حقائق الوجود الذي يطوى في برديه
نفوساً ما لها على نفسها من سلطان ، هاته النفوس التي
تعتقد أنها على كل شيء قديرة وهي أضعف من الضعف ،

لأنها تعجز عن مكافحة أبسط النظم والعادات غير المشروعة
وترضخ لأحكام ليس لها من الحق نصيب ، وتسير تحت
تأثير شهواتها ومطامعها دون مكافحة وما هاته الرغبات
والشهوات إلا رسول الفناء الذاتي الذي يصل بين الفرد
والمجتمع ، وعلى غير عادة جاني رسول الصديقة يحمل إلى
بطاقة ترجو فيها أن أزورها لأن مرضاً قد طرأ عليها ،
فأسلمها إلى الفراش ولم يسعني إزاء رجائها إلا أن أسرع إلى
عيادتها ، والاطمئنان على حالها . فلما جئتها وجدتها حقاً
أشبه ما تكون المريضة فبدأتها في دعاية ، أو هكذا يحمل
المرض الوجوه ؟ فابتسمت ابتسامة مرة ثم قالت بعد أن
عانتني عناقاً أحسست فيه بحرارة تجوب في صدرها ، عل
الجمال واتاني عندما رأيتك ، ثم قادتنى إلى مخدعها وما كدت
أقترب منه حتي رأيت الأخ في شبه نوم عميق يتأوه بين
الفينة والفينة بحرارة وبين يديه ورقة فهمت من ظهرها أنها
صورة ولكن وجهها مرتكز على صدره فلم أتبينها ودنوت

منه فهالتي ظاهرة المرض البادية عليه ، فقد اتشح وجهه
بنقاب من الشحوب ، وهزل جسمه هزالا باديا وكأنه
مريض منذ اعوام ، ولم استطع كبح جماح عواطفني فأشحت
بوجهي بعيداً ، حتي أوارى مدامعي التي غامت بها عيناي
وفتح المريض عينيه ، رافعاً الصورة اليهما في شغف ، وقبلها
في لهفة حارة وقبل أن اتكلم نظر الى وقد تهلل وجهه بابتسامة
طليقة وقال : ها أنت ؟ قلت نعم : أنت مريض ، أوهكذا
على عجل تمرض ؟ قال : ليت مرض وراءه أمل ، ولكنه
عذاب وراءه فناء ، قلت وانا احاول ان اخلط بين الكلام
والضحك الهاديء يا رجولة انت محط القوة تستسلم للاوهام
قال : يا رجولة القوية ازاء الأنوثة الضعيفة ! قلت : ولكن
الأنوثة لا تستسلم لأضعاف ما ينوء به حمل الرجل من امراض
واهوال ومصائب وخطوب جسام ، ولعل المرأة كالنسمة
فبقدر ما هي هينة لينة فيها سر الحياة قال : اجل ! وبقدر ما
فيها من عير شذى فيها سم زعاف وعلى جناحيها يرتفع

العالم نحو العلا او يهبط الى الفناء ، قلت ولكنها لا تخرج
سمها إلا اذا اضطرت للدفاع عن نفسها ، وبذلك تستطيع ان
تسميه بالسسم المرغوب ، قال ولكن ! ثم صمت ، قلت وما
يتبع ولكن ، قال تفهمين وتعامين وتتجاهلين ! قلت افهم
انك مريض واعلم انك ستعافى ، واجهل تشخيص مرضك
فتورد وجهه الشاحب وهز رأسه فى صمت ثم قال بصوت
خفيض : مغرية خطيرة ! قلت ولكنه خطر لا يؤذيك
قال : إنه خطر اهون منه الموت العاجل ، قلت شوهتني
أأكون وباء ؟ قال ليتك ، قلت اتظن أكثر ، قال : وليت
ما وراء أكثر يصور حقيقتك ! ولو كان لكان لى معك
شأن آخر ، قلت ولم أسمينا كل مالا يدرك غموضاً ، ولم
تعلقنا بأذيال هذا الغموض ونحن نقضى عمرنا مؤملين راجين
على ضوء هذا الغموض ، فأنا صحيفة من صحف هذا الغموض
ولست وحدى اذ كل امرأة لها صحيفة ، وكذلك كل رجل
وتستطيع ان تشبه الغموص بكتاب صنفه الخالق الجليل بلغة

غير مدركة لكل مخلوق صحيفة ، وعبثاً ما تحاوله المرأة من
استقراء صحيفة الرجل ، او يحاوله الرجل من استقراء صحيفة
المرأة ثم صمت وأنا شبه محتدة ، فقال وهل يحول الغموض
عن ادراك الواقع ؟ قلت لا ! ولكن قد يتخذ الغموض
وسيلة أحياناً للهروب من الواقع إذا كان لا يتحمل ، قال :
الآن فهمت ، قلت : أتمنى ؛ قال أنت ! قلت : هو أنا
قال غموض مطلق ، قلت يحلو لي ، قال تعذبتني ، قلت
ما شاء الله ، قال إذن ، قلت استودعك الله وتهيات للانصراف
ولكنه استوقفني وقال : اذن أرجوك - فأومأت برأسي دون
كلمة ليتابع قوله ، فأردف - أن تترفقي بي ، ألا تسمعين صراخ
قلبي ، وضجيج روحي ، آه لو استطعت أن أنتشل قلبي من
بين جنبي ، لو استطعت لحطمته تحطيماً لأستريح وأريحك
قلت ويحك ، قال أتحافين علي ؟ قلت الحياة تدعوك ويهمني
ألا تفقد الحياة رجلاً عاملاً نابهاً مثلك ، فقبض على يدي في
شبه عنف ، وناداني باسمي المجرد في غير رفق وقال لا تحاولي

التعنت مرضاة لغريزتك ، قلت وأنا أسحب يدي من بين يديه في هدوء ، ليس تمت ما يدعرك للتعنت ، ولكن مرضك على ما يبدو شبه وهم وأخشى أن يؤذيك ، قال أظنك أطلت قلت في مكوثي .. أعتذر ، وهممت بالانصراف ، فدمعت عيناه ، وارتعشت شفثاه ، وأشار بيده في بطاء ليوحى الى بالبقاء ، قلت ولكنك تعب والحديث قد يضررك ، فلم يجب وظلت دموعه تنهال في غير تمهل ، وكأنه خجل من نفسه فهز رأسه في إباء وقال : إن ظاهرة المرض لا تبدو إلا في دموعي وأخشى أن يكون ذلك من ضعف أعصاب النظر فتعافلت وقلت ولم لا تكون دموعك من تأثير خواطر قلبك عل عروسك لم تأتاك اليوم .. عليها في طريقها .

وقبل أن أتم حديثي ، استلقي في فراشه وغطى وجهه بالملاءة وشعرت من حركات جسمه الخفيفة التي تهز الملاءة أن عواطفه خائنه ولم يستطع صدها ، فترفقت به وخشيت أن ينالني ما يناله ، فرفعت عنه الغطاء وربت على خده في

رفق وقلت : ارحم نفسك ، فلم يفتح عينيه ولم يتحرك ، وعدت إلى ترفقي وظللت أربت على خده وأدلك جبينه بماء الكلونيا اذ بدا لي أن الانغماء قد أصابه وأخيراً تحرك ورفع جفنيه في بطاء فقلت ارحم نفسك ، فأجابني بصوت خفيض رحمتك هي الرحمة الكبرى .

وقفت برهة ، وأنا أكاد احترق من فرط ما بي محاولة أن أكون قوية ، مقاومة جهدي هاته الثورة الكامنة في صدري ، ولكن العاطفة لها حكمها الجائر ، فقد خانتني في النهاية ، ولم استطع كبجها فقلت بصوت مرتعش ؟ حي لو لم تشأ لنفسك من قبل مشيئة قبل هاته الرغبة لكان لي معك شأن آخر ، ولما ترددت في ترضيتك ولكن : ماذني والقضاء قضى لك بغير ما تريد ، وقد يكون قضى لي بذلك أظن انه من الهين على ان اراك على هذه الصورة الأليمة العليلة ؟ ولكن الواجب - ثم صمت برهة لأستعيد قواي واستطردت : أجل الواجب يقضى على ألا اجاوبك عاطفة

بمحافظة إذا كان ثمت عاطفة وانتتى ، على أنى من القوة بمكان
لذا استطعت أن أصارع ذلك التيار وقد صرته ثم ابتسمت
فى دعاية ، وقلت : أنا قوية ، فكن قريباً مثلى على الأقل
فضحك ساخرأ وردد هازئاً ، الواجب ، الواجب ! أى
واجب هذا يا فتاتى ؟ أى واجب يقضى بقتل قلب محب
وروح والده ، بل يقضى بقتل رجل كان فى مقدوره أن
يكون من خير الناس للناس ، وابر الناس بالناس انك تلبسين
مسوح الراهبة لتجيزى لنفسك حق النصيح ، من أباح لك
ارتداء لباس الحكمة على حين كل خالجة فيك تحمل من
الخطر ما تحمل ؟ هاهاها : الواجب ، الواجب ، فوق الحب
حكمة تنزل من عند مليكة جديدة ، أو آلهة للشرائع العاطفة
هه : ومن أنت ، ومن تكونين ؟ ألسن إنسانة ، لك ما لها
من قلب ، وروح ، وشعور . واحساس ؟ لا ، انك لست
إنسانة إنك حجر صلد ، ولكن من الحجارة لما تنفجر منه
العواطف ، وإن منها لما يشقق فتخرج منه الرحمة ، وإن منها

لما يهبط من خشية الحب وسطوته ، إذن من أنت ؟ أنا
أجهلك بقدر ما اعرفك ، من انت أيتها الشيطان الذى
يتراءى فى مسوح الملائكة الأبرار ؟ هه الواجب ، من
علامك العزف على أوتار القلوب ، على حين صوتك يرتل
أنغام القنوط ، من علامك اللعب بالنار ، فيطاير الشرر
ويحرق ألف قلب بار ، من علامك ومن علامك ؟ ثم تخاذلت
قواه ، وتلثم لسانه فلم يستطع ان يتكلم ، وكنت واقفة
فى مكانى لا أجروء على النطق ولا أقوى على الكلام ولكنى
استطعت بعد جهاد أن أتكلم بصوت خفيض كأنه أنات
من وراء الأبعاد السحيقة ، فقلت : عامنى ربى فأحسن
تعليمى ، ولم أخضع لتعليم البشر ، وإن ظنوني عبدة تعاليمهم
عامنى ربى عن طريق إحساسى ومشاعرى ووجدانى قيمة
الحياة ، وما وراء هاته الحياة على حين قد شئتم ان ترضخوا
لتعاليم الحياة ، فحالت تعاليمها بينكم وبين تعرف ما وراءها .
عامنى ربى التمرد ، وعامتكم الحياة الرضوخ ! ولكنى أتمرد

على الباطل حتى ولو أحلته نفسي وقد أظلم نفسي أحياناً وأعذبها
في سبيل الحق تحقيقاً لمثل الأعلى ، أما أنتم فقد تعاملتم
الخنوع والاستسلام عابثين بالحقائق في سبيل الأحلام . هذا
موقفك مني ، وموقفك منك ، إنك تريد أن تحطم قلباً لتحيي
قلبك وتقتل نفساً لتسعد نفسك : أنت الرجل وأنا أحاول
قتل قلبي في سبيل أحياء قلب آخر وأشقي نفسي لأسعد غيري
شاعرة أن في ذلك لذة كبرى وراحة نفسية عظيمة رغم ما
أعانيه من الألم والحرمان . هانت تخضع للعاطفة وتستسلم
لذورها في ذلة وانكسار ، وهأنذا أصارعها فأصرعها وأغلبها
فأغلبها . كل ذلك في سبيل الواجب ان المعروف عن المرأة
أنها عبدة لعواطفها وهذا وهم باطل إذا لمسنا قلب المرأة . إن
المرأة لا تسير خلف عواطفها إلا إذا سلبتها الحياة منذ الصغر
سلاح الكبرياء الذي تستطيع ان تصارع به أهواء الحياة اذا
صارعتها . فأنا وانت وعروسك نخل الإنسانية بأسرها . هذا
يتعذب في سبيل ذاك ، اذا كان كبير النفس نبيل القلب

كريم الروح ، وذلك يضحى نفسه في سبيل هذا لأنه يرقب
السالم من وراء الأفلاك على ضوء قلبه فيحس أن عظمة قلبه
وقدرة نفسه فوق قدرتهاته العوالم ، وثالث يقيم لنفسه ذكرى
على حساب أناس آخرين ، ولا حيلة له غير هذا التصرف الشائن
لأن الحياة سلبته قوة نفسه ، وكلنا خادع مخدوع ، وهنا بلغ
منى الألم غايته ، فهدأت قليلاً ثم استطردت : لك دينك ولى
دين ، أنت مستسلم وأنا متمردة ، والاستسلام والتمرد لا
يتفقان أنت تألف الحياة في دنيا أخيلتك وحدها قائماً بقوت
ذهنك وأنا لا يرضيني غير التجوال في العالم هنا وهناك ، أسير
على الربا الممطار وعلى الأرض القفار ، وفي الصجراء الوحشة
غير عابئة بما ألقى في طريق من مخاوف وأهوال ، ما دام
ضوء الله العالى ، ومثل الحق الأعلى رائدى أسبح في الفضاء
بروحى ، واجوب العالم بذهني ، وشتان ما بين الحياتين ،
وهنا قاطعنى - وكأن كبرياء الرجولة سلطت أشعتها على
هيكله ؛ فبدأ ألامى رهيباً - والآن ؟ قلت والآن يسرنى

أناك عدت الى نفسك ، راجية ألا تعود الى هتك عواطف
أية فتاة وقتل مواهبها مرضاة لك ، وتزويق الباطل تحقيقاً
لعاطفة هوجاء تشور في اليوم لتخدم في الغد ، ولا تحرم الحق
لتنال ما نشتهي . فاعتدل في جلسته ، وبصوت فيه نغم الحزم
الرزين قال : في مقدورى أن اكون كما تريدن أن اكون .
واعتدلت كذلك في جلستى وبصوت غير لين قلت : أريدك
ان تكون زوجاً كريماً مخلصاً نبيلاً مفكراً حليماً ، تقيس
الحياة بقياس عقلك وقلبك معاً ، فابتسم في طلاقة وقال :
هذا واكثر منه ، قلت دون أن ابتسم . وأن تحرص على
حبها وتميل على إسعادها وتتقف حياتك من أجلها ، وانها
خليقة بكل خير ، قال : ومن ينكر ؟ ولكن أشعريني
السعادة فوجهي الخطاب الى نفسك فلست غائبة . قلت
أما زلت تحلم ؟ لقد ظننت انك سموت معى الى دنيا الواقع
انا أعنى عروسك ، اما انا فغض الطرف عنى . فتجههم وجهه
ثم نظر الى نظرة عميقة وقال ولكنى لا أحب إلاك فازداد

ألى ولكنى وارىته وقلت فى هدوء فكر ! أنك الآن مريض
أو شبه ذلك ولا أحب أن أستغل ضعفك إحياء لحي ، فأني
أقدر العواطف قبل وقوعها وأفكر فى الحياة بفكر أوسع
مما تظن . خطيبتك خيالها لا يبرح ضميرى ، ولست من
الأثرة والظلم والضممة بمكان حتى أقتلها فى سبيل عاطفة ترضينى
أو تظن أن السعادة تطيب لى على حين أن هناك قلباً يئن
ويتوجع من ورأى ؟ لا لا : لكنت كبرى الآثمت .
فقاطعني : يا لله ! إنك تخاطبين دائماً بين الواقع والخيال .
وتشوهين الحقيقة مرضاة لجحودك يا ذات القلب الخرب
قلت فى هوادة : أو هكذا تظن ؟ إن قلبي أعرف بالحب منك
ولكنه حب غير ما ألفه الناس جميعاً ، إنه لا ينتمى الى رغبة
أو متعة أو أمل محدود ، إنه حب وكفى ، وبحسبى أن أدركت
الله عن طريقه وأحببت أهلى وأقاربنى بوساطته ، وتعاملت
الفنون ، وألفت الجمال على ضوءه ، فأنا أحب ، بكل ما
فى من قوة حباً شاملاً سامياً غير محدود ، حباً يسمو على

النظم ولكنه لا يعصف بها ، والحب عندي ظاهرة من
ظواهر الحق والفضيلة والجمال والصدق ، فأنا لا أعرف
روعة الشيء إلا إذا شفى عن دخليته ، وأنا إذا أميل بفطرتي
الى ناحية من نواحي نفسي فأثما أعني الحق ولا يستهويني
الجمال أو الحسن إلا إذا اتصل بالطبيعة في أي كائن ، فكل
من تلاعبت الصناعة بذاته فقد خلع جلاباب الجمال عنه فأنت
ترى ان قوة الحب فوق قوتي ، ولست من الكذب بمكان
حتى ادعى اني اقوى من قوة الحب ، فأنا محبة ، أما أني
محبوبة فلا أعلم ، ولكني قانعة بأن احب وحدي هذا الحب
الذي لا يحد ولا يوصف . فليحبني العالم كله ، او فليبغضني
وماذا يضرنى ما دمت انا احب العالم كله ، واود لو اهبه بقدر
حبي فضلا عميما . وانت رجل قدر عليك ان تلعب دورك على
مسرح الحب بلباقة فائقة ولن يتم لك ذلك الا اذا احببت حبا
مرهفا قويا ، حساسا ، ذكيا ، ساميا ، ايبا ، كريما ، عليا ،
مضحيا ، نجيا ، حبا يضحى بكل شيء في سبيل مثلك العليا

التي اتخذتها طريقك الى السماء فتفاخر الانسانية بفضلك
وتتباهى على الأجيال الخوالى . وهنا احسست ان قواي
تخاذلت ومشاعري تنبهرت ، فلم اعد قادرة على صد تيارها
الجارف وخشيت ان يناله منى ما لا ارجوه ، فقد لمحت
عليه ظاهرة الألم والاضطرام ، فترفقت به واستطردت :
والآن احلت لك الحياة ما رجوته فى ماضيك ، فكيف تحرم
اليوم علي نفسك ما رغبته فيه بالامس . اردت ان تزوج
واخترت من بين النساء جميعاً فتاتك ؛ ولا شك انك
حكمت عقلك وقلبك معاً ؛ فلماذا تفر منها اليوم راغباً فى
فتاة اخرى ؟ او تحسب اننى امتاز عن فتاتك بشيء ، لا
تظن ! ان عروسك وإن كانت على قليل من العلم والثقافة
إلا انها تحبك حباً يحوطك بالرعاية والوفاء ، إنها تحبك
حباً قويا على الاقل ، وانا اعتقد ان المرأة المحبة تخلق من
هوأها فردوساً خالداً ينعم فيه الرجل بما يرجو ، فوطن
النفس على ذلك ، وركز فكرك على هذا المحط ، ولا

تجنح بخيالك الى فضاء الوهم الفسيح ، وليس الزواج حاملاً
من الأحلام ، إنه حقيقة خطيرة ، إنه حياة قائمة بنفسها لها
ميولها وتوافقها ، وأنظمتها وقوانينها ، فلا تظن أن حب
الرجل وحده يكفي هاته الحياة ، في مقدور المرأة أن
تكيف مزاجك وتلطف مشاعرك ، وتنظم شؤونك ،
وتجمل حياتك ، بل في مقدورها أن تخلقك خلقاً جديداً
ما دامت تحبك الحب الكامل البريء الخالص ، ولكن
ليس في مقدورك أن ترتفع بها الى سمائك إذا كانت ثققتك
انقمت البنيض . تنفس الصعداء ، متطلعاً الى السماء ،
ثم ارتد طرفه اليه في هدوء فرنا الى ثم قال : ولكنك أبداً
أمامي ، وأنا اجزم أنك تدركين حبي وتبادلينني إياه ، ولكن
بينك وبين نفسك مهما وارىت ، فعيناك يختلج فيهما ضوء
حبك وكان صادقاً بلا ريب ، لذا حاولت أن أتابع المرئيات
ببصرى ، حتى لا يرتكز نظرى عليه ، ثم ابتسمت في دعة
وقلت في تلطف : لا تحاول أن تشرح قلبي ، اذ من العبث

أن تعرف ما وراءه ، ولكن حاول إن شئت أن تعرف رغبتى
أنا فتاة نهمة أتطلع الى ما وراء السماء ، وأنت تميش بمالك
وجاهك وصررك قائماً لا ترنو عينك الى ما وراء ذلك ،
وكل هاته الظواهر فى نظرى لا قيمة لها ، وقد رضيت بها
الإنسانية راغمة ، لأنها سلم الرقي العمرانى المزعوم الذى
يتطلع اليه أبناء المادة عبيد الرغبات والمطامع المحدودة ، وقد
أكون أنا شاذة لأنى أبدأ أتطلع الى ما وراء نفسى ، وأترب
أشباع نهى عن طريق أمل جليل لا يحققه غير طيف الرجل
العبرى الذى أودع فى روضته خلاصة المثل العليا ، أنا أريد
الحياة على غير ما يريد الناس جميعاً ، لأنى أريدها مضاءة
بالحب الجليل ، والتسامح النبيل ، والبر العظيم ، والفضل
العميم ، والجهاد الفائق ، والتمرد الصادق ، وقد يحاول
العذاب فى سبيل ذلك ، فقاطعنى قائلاً : يا أخت الخيال
رويدك ، إنك تتكلمين بلسانك وحديث اللسان غير حديث
القلب ، فعز على ان يشوه حقيقتي ، فقلت فى غير لين :

لو كان للسانى الحق فى حرية الحديث لاستطعت أن
استرضيك على الأقل منذ بدأت تضطرب فى سبيل عاطفتك
ان أبغض الأحاديث عندي حديث اللسان وهو كطلاء
الوجه ، تجهد المرأة نفسها فى اتقانه ، وقليل من الوقت
كاف لتشويبه ، وهذه الظاهرة لا تعينى بقدر ما يعينى
مواجهة الواقع ولو كان أليماً ، فأنا أحب السير فى الطريق
وحدى ولو كان لا حباً موحشاً مظلماً وقد يحلولى السير فيه
طويلاً لأعرف حقائق الوجود ، لأن الحقائق تحتجب وراء
الجهول لتحمل البشر على الدرس والبحث والتنقيب والجهاد
فلا كن واحدة من هؤلاء الباحثات الدارسات المجاهرات
ومحال على ما أعتقد ان أتأذى بروعة الضوء إذا لمحتة عن
طريق غيرى ، بل إنه يسرنى ان أدرك الحقيقة وحدى عن
طريق أفكارى وأحلامي ومواهبى ، وهنا كنت قد نسيت
بأفكارى ، فأدركت موقفى منه حيال نظراته العميقة
الوضاءة فنظرت اليه برهة صامتة مستعيدة فكرى ، ثم

استطردت : أما وقد شاء الله لك عروساً من خيرة الفتيات
جمالاً وطيبة قلب ، وطهراً ووداعة فعش لها . وكان يصني
إلي بانتهاء دون ان يقاطع ترسلي وما كدت اشير الى عروسه
حتى صرخ في وجهي كفى ، كفى ، أرجوك ، قد تركتها
تركها ولا بد ، قلت وقد اعتراني شبه ألم ممض ، وثورة
كادت تصرعني لو لا أني ملكت نفسي ، كيف تجرو ؟
إن كانت أساءت اليك ، فأنا شفيعها لديك ، تريث ياسيدي
وفكر طويلاً فعسى ان يعود اليك صوابك وعافيتك ، قال
حسبك يا آنستي ولا تضيفي الى همومي همماً جديداً ، دعيني
وحدى أتصرف كما يحلو لي ، وتخلي عن طريقي اذا شئت
وكوني راضية او غاضبة ولا تجعليني هدفاً لقنابلك . قنابلك
أيتها القاتلة التي يحلو لها ان تبسم على حين عيناها ترسل إلى
شرراً تكفي الواحدة منها لأحراق ، كان يتكلم وقد ملكته
كبرياء الرجولة ، وعزة نفسه ، وبدأ كأنه صحيح الجسم
معافى فابتسمت في هدوء وإن كانت عيناها تكاد ان تتفجران

بالدموع وقلت : يا له من حلم رائع إلى متى يواتيك وهمك
عد إلى عقلك إن كان شبه مس قد أصابه ولا تخط بين
الحقيقة والخيال ، فالنزوع إلى الحق ولو كان صرا فضيلة ،
فقاطعي صارخا : أنت التي تنزعيني إلى الخيال ، الخيال
الطائش على ما أظن ، فجابهى الواقع على ضوء قلبك ، ولا
تفكرى بعقلك فقط لأن العقل وحده لا قدرة له على الحكم
المادل . لم أستطع رد ثورتي النفسية وخشيت أن يامح
ظاهرتة بادية على فأسرعت وتركته وأنا أردد ، يبدو لي أن
لا فائدة من الحوار ، إن المرض جر عليك ذيل الوهم ، ولا
فائدة وراءه ، أتمنى لك الشفاء ، وتركته دون أن التفت إلى
رجائه ، وقبل أن أنصرف قادتني شقيقته إلى البهو وأنا أسوق
قدمي في شبه عنف لفرط ما بي من اضطرام وجزع وألم
ولم أستطع كببح جهاح عواطفي فبكيت . أجل بكيت . ولست
أدرى لم بكيت ، ولكن شقيقته جففت عيني بمنديلها في
رفق وقبلتني في حنان ثم قالت بصوت خفيض : يا عزيزتي

إنه يحبك ، إنه يحترق بدموع قلبه وقد صبح عزمه على ترك
خطيئته ، ولا بد من ذلك فلا راد لأرادته ، ترفق به يا صديقتي
أو على الأقل اعطني على مثابه الغض وذهنه الخصب فالمرض
يتلاعب بهما ، كلمة منك تشرح صدره وتطمئن قلبه . اجيبي
بصراحة : لماذا تصدينه عنك ، الزواج مقدر عليك مهما
قاومت رغبات الأهل والصحاب ، وماذا يمسوك ، مركز
و ثراء وحب ، إنه كفء لك يا عزيزتي . قلت لها وقد عاد
إلى هدوئي بل هو فوق مستواي إن شئت تصرحاً ولكني
لا أستطيع أن أساهم معه في قتل نفس بريئة محبة وفيه ، وهل
هذا يرضيك ؟ لا تحاولي قتل البريئة معه . ما ذنبها ؟ إن
قانون العدالة يقضى بقتل القاتل لجسم . فأى عدالة تنص على
عقاب النفس الطيبة الطاهرة وقتلها ، وأي عقاب أُرهب
من الموت يستحقه ذاك الجاني ؟ لا إن القتل أهون في يقيني
فقطاعتني : ليس ثمة قتل كما تتوهمين فسوف تنزوج بآخر
قلت : من ادراك ؟ انها تحبه ، وصدمة كهذه كافية لقتلها

فانى اعرف خبيئة قلبها من عينيها الصافيتين ، هذا ظلم ، لا
لا يا صديقتي كوني رحيمة ! قالت وقد طوقني بذراعيها على
اثر الدموع التي انهالت من عيني ، تصوري كيف أحرص
على حبك وكرماتك ، وأصون ولاءك ، تصوري كيف أغار
عليك من لداتك ، أنا الفتاة التي تقربني منك عاطفة الحب
النسائي ، لا أحتمل منك اى تجنب او جفاء ، فما بالك برجل
يحبك حبا ، ساميا ، قويا ، زخارا ، وشتان ما بين حب الرجل
للمرأة وحب المرأة للرجل وهنا تذكرت الصورة فسألتها
صورة من تلك التي كانت بين يديه ، فتلصصت وقالت في
خفوت ، وقد ملكتها رجفة هادئة : صورتك . فهالني
الأمر . صورتى ! وكيف أخذها ؟ ومن اين ؟ فنظرت الى
في استعطاف وقالت : سامتها اليه وانا باكية خوفا منك ،
وخشية عليه ؛ فاصفح عني ، قلت في حدة لا ! أتسيئين الى
كرامتى ابتغاء مرضاة أخيك ؟ واستويت واقفة في غضب
فأجلستني يديها في هدوء ولطف وقالت بصوت لين : عفوك

انه يحرص عليها اكثر من حرصك على نفسك ؛ انه يصونها
اكثر مما تتصورين ؛ وما ضرک لو تداوى بخيالك على ورقة
أيتها البخيلة ؟ ان عاطفته نبيلة ؛ وغرضه أنبل ، انه يحبك
ويريد أن يتزوج منك ، فمن يعيب عليه ذلك . قلت في
صرامة : لن يحدث ذلك ، وكيف يهجر خطيبته بلا ذنب لها
هل جزاء اخلاصها ووفائها ، وحرصها علي كرامته الحكيم
عليها بالأعدام ، أوه ! يالأنانية كيف تطلبين منى شقاء غيري
لأسعاد نفسي ، وأنت بخلقى ومبادئ عليمه ، كيف أقتل
قلبها لاشبع عاطفة قلبي ، يا للهول انها لجريمة كبرى ؛ وان
عدها الناس دون ذلك . فحنت على وقالت : انه يهواك ،
وقلبه لم يخفق لسواك ؛ وقد ادرك ان حبه لها كان خاطئاً
فقلت بنعمة التهمك والسخرية : وسوف يحب غيري في الغد
وسوف يعرف أن حبه كما ترعمين خاطيء ان قلبه يا صديقتي
وأعني قلب الرجل ان شئت إيضاحاً كالفراشة تحوم هنا
وهناك ، وترف فوق الازهار مستمدة منها العير لتحيات ،

أرأيت فراشة هائلة حول الضوء ؟ أو لم ترى كيف راق لها
الضوء ، وكيف ملك عليها حسبها وكيف تهيم وراءه لما فيه
من لذة لها ، ولا فرق عندها بين الضوء اللهي ، وبين
اللون الزهري فكلاهما أمامها سواء ؟ ولكن حسبها أن
وراء الضوء ما وراء الزهر من متعة تحمله على أن يظل يرف
حتى يسقط في النهاية حريقاً بعد أن تهد كيانه الرغبة المكبوتة
الفراشة لا تموت بعد أن ترف على الزهر لأنها لم تنل من
الزهر حظها المرغوب ، ولكنها تموت على أثر الطواف
حول الضوء ، وسر ذلك الحرمان . أجل الحرمان هو
باعث هيامه ، وسر غرامه . والحرمان كما أظن هو طابع
الحب ، وعلى قدر نصيب الإنسان منه يكون حظه من
الحب ، فالحب يبقى ما دامت الرغبة باقية ، والرغبة تبقى ما
دام الحرمان موجوداً ، المتعة تغذى ، ولكنها تقضى على
الرغبة وهالك دليلاً بسيطاً ، فالجسم عندما يتغذى لا يشعر
بجوع ، وإذا جاع شعر بحاجة إلى الغذاء ، فحرمانه الغذاء

يدفعه الى طلبه وما يسرى على الجسم يسرى على النفس تماماً
فلو ظلت عروسه تحرمه ما يرجو لبقى حريصاً عليها طوال
السنين ، ولكنها بريئة النفس ساذجة إذ اندفعت وراء حبها
وعز عليها أن يرجوها فلا تجيب ؛ لقد أساءت الى نفسها
بقدر ما أحسنت اليه ! هلا تصدقين ؟ لقد ملأت روحه
بضوء الحب ، وعامته كيف يحب ، وما هو إلا أن تعلم
كيف محبوب الآفاق ويحلق بجناحي الحب فى السماء ، حتى
حلاله أن يطير فى كل واد راجياً حياة جديدة ، وإن الرجل
يحب ويهوى - لست انكر - ولكنه يحب نفسه يحب
رغبته ، ويفنى فى سبيل العثور عايتها ، فاذا أنالته الحياة متعة
الحب كما يروم ازداد طمعاً وجشعاً ، لأن النفس البشرية من
رأيها الطمع كاللذة تماماً تشعر بالمرض ، وتكل عن الهضم
وتطلب وتطمع ، وهكذا يظل يحوم وراء كل ما يروقه
لينيل حظه مما يشتهيه ، وتتحدد رغباته وأمانيه وتتسع احلامه
وأخيلته على طول الطريق ، وما أشبه الرجل المحب بالسكير

يبحث عن خمرة أيا كان نوعها في كل مكان راجياً ان يوفق
الى النادر النفيس ولكن من توفيق الأنسانية وسعادتها ،
ان هناك مثلاً علياً تحمل بعض الأفراد الممتازين على السمو
وتدمير الأباطيل والعصف بالتقاليد الوضيعة سعياً وراء هاته
الثل العالية ، فقاطعتنى ، ولكنك ظلمت أخى ، لأنه لم
يختلط بها كما تزعمين كثيراً ومنذ عرف أنها لا تجيد الموسيقى
كما كان يظن ، نفر منها واجتواها . فازدادت ثورتى وقلت
هاته أغلوطة أخرى ، إذ من العبث أن يخلط الرجل بين
الخيال والحقيقة فيعمل على تركيز حياته المنزلية على أحلام
ذهنه . أتكون الموسيقى وحدها كافية لتشيد منزل عامر ؟
إن الموسيقى ظاهرة كالجمال والمال وما شابههما ، فلا يمكن
بأى حال أن تقيم منزلاً عامراً وحدها بل لا بد أن تركز
هاته الظواهر على توافق الميول والنزعات وحسن السياسة
المنزلية ، والتدبير والاقتصاد ، والعمل لصالح الوطن عن
طريق الأسرة المنوطة المرأة برعايتها ، إلا كان يجدر به ان

يتأكد من طباعها وميولها ونزعاتها ، قبل ان يقيد نفسه
برباط مقدس خالد ويحكم على نفسه بالشقاء المحتوم ؟ قالت :
إن أخى لم ينعم بجوارها كما تتوهمين وقد عذبه الحرمان ولعل
الحرمان جرعة من السم تميت من يتجرعها ، ولكنه الموت
البطىء . قلت : أحيانا ! ورغم ما ينفثه في الصدر من
هموم ، وخواطر ألّية ، فهو يخلق في النفس قوة ممتازة
تحمل صاحبها الى سماء الفن ، وقد يظل سامياً ممتازاً ، وقد
لا يكون ، والحرمان على أية حال يفيد كثيراً ، ولعلك
تعرفين أن سر خلود الحب وبقائه على مر السنين وهاجج الامعا
يتعلق بقوة الحرمان وضعفه ، أترأه أدرك ميولى ونزعائى
مع أنه لم يختلط بي اختلاطاً يبيح له ذلك ؟ كلا . إذن فهو
يسير خلف خيال خاطيء . وشاءت أن تدافع عن أخيها
فقلت : أجل انه يفهمك تماماً ، لأنه ذكى بصير ، ولولا
ذلك ما أحبك هذا الحب العميق ثم هزت رأسها وأردفت
لأول مرة ألمس القسوة عن طريق قلبك ، فيالك من قاسية

اجل أنت قاسية جدا جدا يا عزيزتي ، مع أنك - وأسفاه
فنانة ! قلت وهذا عيب ، نعم عيب أنى فنانة ، ثم أكدت
صدقيني إنه عيب لا شفيح له ، وبديل ذلك أنى أتخبط فى
الدجى وحدى على ضوء هذا الفن ، بينا الناس يتمتعون
بأمانهم على حساب غيرهم ، ويرتفعون بأنفسهم على أعناق
غيرهم ايضاً ، اما أنا فقد وهبت الفن أمانى الحسان ورغبت
إليه أن يمنحنى نفحة من النعيم الروحى ، ففتح لي رتاج ذاك
النعيم ؛ ولكنه بعيد ؛ بعيد جداً حتى إنه ليجشمنى الوصول
إليه كثيراً من العناء ، وسوف أسير دائماً حتى أبلغ غايتى أو أقضى
دونها ؛ فليس تحفظى جهوداً كما يبدو لك ولكنه فن من
الفنون ؛ ولعلك تعجبين إذ أصور لك العيب الذى لا يروقك
فنّاً محبباً ؛ عيب فى ظاهره القسوة وباطنه الرحمة والسلام
أنه كبضع الطيب يحملنا على العويل والصراخ ولكنه عويل
الرحمة وصراخ الشفاء ، فأنا محبة ، ولكنى أحب حبا علويا
شفافاً نقياً ، جليلاً أياً ، وأطمع فى الحب الذى يزيد من

شملة هاته التزعات فيزيدها توهجا وضراما . ارتاحت
صديقتي لصراحتي ، فابتسمت في بساطة وقالت في سداجة
حسن من تحبين ، قلت أحب الروح العلوية التي تعصف
بالقدر والخديعة وتتمرد على الحق والأباطيل وأحب أن
تكون صلاتي بمن يحبني صلة فنية ؛ كالصلة التي تربط الفنان
بإيمائه ، فاستلقت على ظهرها من الضحك وقالت : حتى
حبك قاس كقسوتك ، قلت دون أن أساير ضحكها : وأنا
أتشبت بأذيال هذا الحب القاسي ما دام يرتفع بي عن
الأوضاع غير المشروعة لأتخذ منه قوة أصارع بها الأهواء
والرغبات الباطلة وأزود عن نفسي كلما واجهني أحد المتطفلين
أجل يا صديقتي أنا أعبد ذاك الحب الذي يعلم البشر العزف
على أوتار الأمن والسلام ويحطم أغلال الحرب والخصام ،
فتكون الأنسانية بفضلها محطا للهدوء والأمان ، وكأن في
ذلك استهتارا بعاطفة شقيقتها فثارت على وصرخت في وجهي
لو أنك غيبة لعذرتك ولكنك ذكية ، ما هذه الفلسفة الجافة

ثقي ان أخى لم يحب سواك ، قلت محال ذلك وهبى انه يحبني
الآن ذلك الحب الزخار ، فسوف يلمس فى الغداة حقيقة
اخرى ، ويشاهد صوراً اروع ، تدفعه الى حب جديد ،
وهذا بطبيعة التناسخ الذى تكشفت عنه السيكلوجية الحديثة
لأن الجمال تنسخ صورهِ بعضها بعضاً ، ولا يبقى فى بؤرة
الشعور الا الصورة الواضحة القوية التى تغلب على الصور
الأخرى التى فى حاشية الشعور ، وليس معنى ذلك دوام
هذه الصورة فى بؤرة الشعور . كلا . ولكنها قد تضعف
ويحل محلها صورة اخرى تغلبت عليها من صور الحاشية ،
فتخرج الأولى الى الحاشية وهكذا - فالقول بأن هذا يحب
تلك حبا ملك عليه قلبه ، ولم يترك مكاناً لغيرها ، ان ساغ
أدباً ، لم يعد يسوغ سيكلوجياً . فصورتي التى تبدو أمام
شقيقك فى هاته الأيام وضاعة فاتنة ساحرة سوف تتلاشى
فى الغداة اذا ارتطمت أحاسيسه بصخرة سحر اقوى وفتنة
أشد أو على الأقل اذا تكشفت له منى ناحية لا يحبها .

والآن دعيني احاول بلباقة صد تيار عاطفة اخيك لناخذ بيده
الى محط الراحة والهدوء والسعادة التي يتناقلها ونسعد بجانبه
فتاة جديرة بالسعادة والهناء ، دعيني امد يدي الصغيرة في
خفاء ورفق الى صدره باسم يدك لأزرع صورتي من بين
قلبه ، ولأضع مكانها صورة عروسه حتى يراها بالعين التي
لا يزال أبداً يراني بها ، ولا شك ان الله سيكلؤهما برضاه
والآن اليك مهمة بسيطة فحاولي القيام بها من اجلي فمسي
ثورة الحب أن تحمد عنده . تعلمي الكذب من اجلي وإنه
لكذب برىء ، قولي له إني مخطوبة وإني أهوى خطيبي
وليس في مقدوري ان احب سواه حاولي الافتراء يا صديقتي
فقاطعتني ، أو تقتلينه راضية وانت التي وقفت ضوء قلبك
وبر روحك ، وعطف نفسك علي البؤساء ؟ او ليس جديراً
بذلك من سببت له البؤس والشقاء ؟ قلت : اما عن الشرط
الأول فلا أنكر ، واما عن الزعم الثاني فأستنكر وهي
ذلك ، فالشقاء ليس معضلة ، إن من الهين ان يتلاشى

ويتناثر كالأشلاء ، ثم يحل محله السعادة والصفاء ، ومن
أجل ذلك دعيت أتعهد الجفاء ، لأن الحقائق مشوهة ، ولا
مندوحة من الهروب الى الخيال ، دعيه يتخيلني غير ما يرجو
لينسى ، قولي له إنني فتاة جاحدة ، شوهي حقائقى وحطمتى
مطامعى ، وأفسدى فضائلى ، حاولى ان تقذفى بروحى فى
بحر صاخب من الأوهام السقيمة ، وتعالى اليه بعروسه فى
فضاء أبهج وأجمل ، أفعلى ذلك من أجلى وحرصاً على مستقبل
الفتاة البريئة ليرعاك الله فى مستقبل أيامك ، إنى أريد سعادة
أخيك وسعادة الفتاة ، يا صديقتى كوني مكانها وتخيلي مصابها
لنفسك ، ثم حكى قلبك وعقلك . فتأففت ودمعت عينها
وتعطفت على وقالت : ولكنك ستعانين ألم نفسك ، وألم
غيرك فانى أعرف قلبك . قلت وأنا أحاول ان أخفي هاته
الحقيقة ، سأظل حياتي انشد شعراً ، وأوقع لحناً ، وأرسم
صوراً كلها تنتمى لحقائق الوجود فى كنف ضوء الفنون
وسأظل أقرع باب الحقائق بعصا الأحلام حتى تواتبنى

المعرفة ، فأعص عليها بنواجذى لأدرك المجهول على ضوئها
وهناك عند محطة الواقع ، أوقع ألحان الوجرد لأسمع الكون
أنغاريدها الخلود . وسمعت تصفيق المريض ، فأسرعت اخته
إليه وخشيت أن يجهد نفسه ويفادر فراشه إذا علم بوجودي
وقبل ان تعود كنت في طريقي الى منزلي ؛ بعد أن تركت
إليها مع الخادم تحية المساء .

٣

سرت في طريقي الى منزلي ولم وانظري يمتد خلف
الطيور في السماء حيث تطير ، وهي تنتقل من فنن الى فنن
يا لله ! أهكذا تطير قلوب الرجال حول العذارى ؟ ولكن
ما ذنب الرجل ، أسأل عن هذا التصرف ؟ وهل هو
تصرف خاطيء كما يعتقد الدامة ؟ لا أظن إن الجمال في كل
مكان ، والله لم يوحد الجمال كما يوحد الإنسان حبه ، بل الله
نفسه لم نحبه هذا الحب الجليل العظيم ، إلا من تنوع مآثره

الجميلة الرائعة الخالدة ، وأظن لو كانت هناك سماء فقط دون
أرض أو نبت أو ماء ما بلغ حبنا لله ما بلغ بنا اليوم ، ولو
كانت الأرض بلا سماء ما استطعنا ان نتم بالحياة كما نتم
اليوم ، ولولا وجود الورود ما عرفنا جمال الزهور ، ولولا
نعيق الغراب ما شجانا البلب ، ولولا البغض ما عرفنا الحب
فالرجل محبوب بفطرته على حب الجمال ، والمرأة هي محط
ذاك الجمال ، فليحب الرجل كما شاء ، وليتنقل بروحه الهائلة
من دوح الى دوح ، على شريطة أن يكون صادق الحب
وأما ان يختلط بين الصدق والكذب ، ليستغل الحب في
تحقيق رغباته ، فتلك أغلوطة الحياة الكبرى ، أنه يسىء
الى نفسه بقدر ما يرجو من إحسان ، لأنه لا يحكم قلبه وعقله
في جمال ، ولكنه يجرى وراء شهوة نفسه . والشهوة أبداً
نزاعة الى السوء . أجل الرغبة تدفعه الى المجون . والمجون
يهوى به الى الحضيض ولا خيز في رجل يسف ، أجل ولو
حكيم الرجل قلبه وعقله ، لكان صادق الحب ، ومن صدق

حبه فقد حسنت دنياه ، ومن حسنت دنياه فقد كسب
الحياتين . لبثت أخته تزورني من حين الى حين ، وهى فى
كل زيارة تحاول التغلب على بدموعها وحديثها وأنا اتكلف
الجمود ، وأدفن المرارة ، وعولت على عدم زيارتها تمهيداً لما
انتويته من قطيعتها ، وكم كانت تهيب بى ان أزورها وعشاً
ما أرادت ، ولست أنسى يوم جاءتنى ، وقد اتشح وجهها
بنقاب الهم العميق والقلق الشديد ، فبعد ان بكت طويلاً
استطاعت بعد جهد ان تنبئني بأن أخاها قد برحت به العلة
حتى بات تحت رعاية الطبيب وحده . وقد رجتنى ان أرافقها
لأشاطرها العبء فقد اضناها جهد تمريره ، وألم عله . لأن
والدته عند ابنتها منذ أسابيع وتخشى ان ترسل اليها وهى
مريضة القلب فتسوء اليها من حيث لا تدري ، ولم يسفنى
ازاء توسلها الا ان ارافقها ، فقد أدركت خطورة الحال من
دموعها وحديثها ، وقد عودتنى الصدق والصراحة ولم اك
ابلغ مضجعة ، حتى لقينى طيبه بألم مرير ؛ وقد تكلف

الابتسام ثم صاحني في صرارة فبادرته سائلة : أو حالته
خطرة ؟ فغمغم في بأس وخفوت ؛ أثنى له الشفاء على يديك
وحولت نظري الى المريض فاذا هو في غفوة عميقة تبدو
على وجهه ظاهرة الداء المبرح فمدت يدي بهدوء لأجس
نبضه ، ولكنني اضطربت حينما سمعت نغما متقطعا خافتا
يخرج من بين شفثيه في شبه كلمات متقطعة لا أواخر لها
حيية ... تعالى ... لأراك ... ثم أمو ... سأنتظرك ... هناك
حيث لا نظم ولا فلسفة ولا خوف نخانتني عيناى ، واشتد
وجيب قلبي ولم استطع كبج جهاج عواطفى ، ولعل الطبيب
ادرک ذلك فنظر الى فى عطف ورثاء ثم قال : إنه يهذي ،
قلت والدموع تنهمر ، أيطول ؟ فطمأننى وفى صوته رعشة
الألم المكبوت ، وفى عينيه التماع الحزن والعطف والرجاء .
وبعد ان عالج الطبيب اغفاءه تحرك وفتح عينيه ، وخشيت
أن يامح ظاهرة الكمد والحزن على وجهى فتواريت خلف
الطبيب لأجفف دمعى ، واقترب منه الطبيب باسماء وداعبه

في رفق قائلاً : ألا تصحو ؟ إنها بجوارك قال من ؟ فهمس
في أذنه من تحبها . فأرخى المريض جفنيه ولم يجب وتمشت
حرارة الحياء في سراييني فابتعدت عنهما ونظرت الى الأخت
نظرة سريعة فهمت معناها ، فاقتربت مني وهمست في أذني
إن الطبيب صديق الأخ منذ الطفولة ، وهو كاتم أسراره
فاطمئني اليه لأنه على خلق عظيم ، طيب القلب كريم النفس
كامل الرجولة ، وسمعها الدكتور فابتسم في دعة وقال
بصوت خفيض : يا آنستي ترفقي بي من أجل الواجب فقط
ثم دنا من مريضه وخاطبه ... هيا ... تكلم ، فأجابه بلهجة
متقطعة ، لقد قربت الساعة يا دكتور ، فقال الدكتور :
ستعيش طويلاً وطويلاً جداً ، وسوف تنال حظاك من
السعادة التي ترجوها ، فاغتصب المريض ضحكة فيها رنين
الألم الممض وقال : أحقاً أننا نلتقي بعد الموت بمن نحب ،
فربت الدكتور على كتفه وخاطبه في رفق : أوتدكر احلامك
في الصغر ؟ لقد كنت بعيد النظر وما لك اليوم لا تصارع

رغبات نفسك كما كنت تفعل ، وقبل ان يجيبه المريض
قلت : ما علة يا دكتور ؟ فالتفت الى وأجابني وعلى ثغره
بسمة غامضة : اظنه تهاون في رعاية نفسه ولأنه لم يألف
برودة الجو ، فقد وافته حمى طفيفة قد نزول بعد حين ،
ففرحت بيني وبين نفسي وابتسمت بدوري ، وشئت ان
اقول له : ومتي يعافى ؟ ولكنى قبل ان أتكلم توصل الى
ودفعنى برفق اليه دون كلمة فقلت وأنا أحاول ان أبدا امامه
هادئة : أتمنى ان تكون بخير فأجابني : ما دمت فأنا بخير
قلت : ولكنك تمارض . أليس كذلك ؟ أأعجبك راحة
السرير فابتسم بسمة تنفس فيها آهة حارة وقال : من ادراك
أقلبك ؟ قلت قلبي يحدثني أنك ترجو قال : وما ارجو !
قلت : عروسك . فعانقني أخته وقالت رحمتك يا عزيزتى
تذكرى انه مريض وأيدها الطيب بقوله ، ان الرحمة وليدة
قلب المرأة فكونى به رءوفة عطوفة يا أنسى وقد استدعيتك
لأستمع بك على شفائه وبرئه ، فكونى عند حسن ظنى

فيك وإني صديق حميم له ، وأعرف عنه ما يعرفه عن نفسه
وبحق هاته الصداقة أتيح لنفسى هذا التدخل بينكما ،
فاعذرني يا آنسة قلت وأنا أتخشى ان أرفع نظري اليه لكيلا
يلمح ما يبدو في عيني من خجل وألم ؛ وأظن ظواهر ذلك
علت وجهي فأحسست أن الدماء تكاد تنهمر منه وغمضت
في حياء . أطمئن . فابتسم شاكراً واستأذن منصرفاً على ان
يعود سريعاً فيلقاني ، وأظنه تعمد ذلك ، وتقدمت الأخت
من أخيها ، وداعبت خديه في حنو وهمست في أذنه بنغم
مسموع : إنها بقربك فاصح - تشجع - إنها حزينه من
أجلك ، فقاطعها ... آه إنها ... فتقدمت منه وعطفت عليه
ثم قلت ترجو لك الصحة والعافية ، فتغاضى عني وخاطب
أخته : إنها تريدني مرضاً على مرض . فترفقت به وقلت :
أهكذا تظن ؟ قال والأسفاه ، قدمت لي كأساً شفيفة ولكنها
مليئة بشراب تكفي الجرعة منه لقتل أقوى قلب ، قلت ترفق
بنفسك فان الوهم مضمّن ؛ قال أولست أنت ؛ قلت : بلى

قال : أنت وهمي قلت إذن دعني أتقشع / قال وهم الخلود
أعني ، فأنت باقية ما بقي الخلود ، قلت حتي فلسفتك تواتيك
في منامك ، قال إن الفلسفة ادراك الحقيقة ، وأنت حقيقة
إدراكي في يقيني قلت : فكر في نفسك فقط ، ودعك مني
حتى تتعافي قال : إذا كان في مقدور الإنسان أن يصد عنه
تيار عاصفة جارفة ، استطعت بدوري أن أصد تيار عاطفتك
إنها عاصفة مدمرة أخشأها ، فخنوت عليه وقد شعرت أن
كياني يحترق ببطء ، وصرت على جبينه في صمت وكأنه
أحس بحرارة حزني تسري اليه عن طريق يدي ، فأغمض
عينيه في شبه غفوة وتنهد . وشئت أن أخرج به من صمته
فقلت : أتراك تحلم ؟ ففتح عينيه ولعله شاء أن يجيب عنه
دمعه ، قلت وأنا أجفف مدامعه ؛ وقلبي من فرط اللوعة
يكاد يفر مني .. والآن أتدعني ؟ وفي الحق لم أرغب
في الانصراف إلا خوفا عليه وعلى ؛ ولكنه قال بصوت
حزين : الى أين ؟ قلت أنصرف ، قال ظننت ، قلت : وما

ظنك ؟ قال أدعوك الى عالم احلامي فنحيا هناك سويا نستضيء
بضوء الكواكب ، ونمرح في الفضاء غير المحدود ، وننعم
بحياة الطلاقة والصفاء حيث لا قيد ولا غناء ، قلت بصوت
يشف عن رغبتى ، نى ميل الى تحقيق ذلك الأمل ، ولكن
صوت الضمير ينهاني . قال : لم توارين الحقيقة خلف الضمير
قلت ما دمنا نرغب في السعادة المتدفقة من القلب والطمانينة
المستقرة في الروح ، فيجب أن نركز هاته الأمانى على محط
الضمير . قال : يا ظامك ، ومتى اهاب بنا الضمير الى الشقاء
قلت ، إنه لا يفعل ، ولكن الإنسان يميل الى مغالطة ضميره
مرضاة لرغبة يرجوها ، قال : وما دامت الرغبة بريئة طاهرة
فالضمير يتعالى على أباطيل السوء . قلت . يسرنى انك تتكلم
بلسان المعافى ، ولا شك أن انحرافك ولي عنك ، قال :
ما دمت بجوارى فأنا على أحسن حال ، قلت . تعبير لطيف
تشوّهه المجاملة بوى لو تتجنبنى .. لأعرف مدى قوة الرجل
فتأفف وتأوه وقال : أف منك يا ... لآخر مرة أحب ان

أقول لك الحقيقة التي أعرفها ولم أعرف سواها هي أني لا
أحب إلاك . قلت : آه خالك عقلك ، أنسيت نظرية
التجديد ؟ إنها تسري حتى على العاطفة . آه عروسك ،
ثم ارتعشت شفتاي على أثر مدامي ، فعضضت عليهما حتى
كدت أقطعهما من فرط الألم ، فتململ ملتاعا وهاجمته
دموعه ، فأرخى جفونه وظل هكذا على صورة هادئة ، وأنا
حياه جزعة هائلة بروحي حوله غير قادرة على صد اضطرامي
وأخيراً استطعت بعد جهد أن أوارى همي وأداعب أصابعه
في هدوء وحنو حتى انتشى وفتح عينيه . فقال بصوت
خفيض : أو أنت ؟ قلت : أو تشك ؟ قال بشغف : هييني
ميثاقتك . قلت : لك بعد شفائك . قال بصوت صريح
قد شفيت . قلت : إذن غادر فراشك . قال بعد الميثاق
قلت : هيه وسكت وأطرقت برأسي . وقد أحسست أن
الحرارة تسري في وجهي ولكن شبه طيف وقف بيني وبينه
يهمس في أذني - حذار ! فاستوي في جلسته ، وبدأ كأنه

تعافى حقاً والتمعت إشراقة الصحة في وجهه وبلطف النسيم
سحب يدي ورفعها الى فمه فشعرت بأن الطيف قد توارى
بعد أن هبت على نفحة حارة من لدنه قلت وقد قطبت جبیني
كأنني غاضبة : أين حذرك ؟ قال أتضمنين برشفة شفاء أحيا
بها أيتها البخيلة ؟ قلت : إذن تعافيت قال : هو ذاك ! قلت
ها قد اطمأنتت فدعني أنسحب قال : ولكن ارجو ان أظل
حياً . قلت ما دمت تعافيت فالحياة تحبوك أوليست العاقبة
هي الحياة ؟ قال أو تجهلين ؟ قلت قد اكون جاهلة - لا
أدرى - فأرخى ذراعيه في شبه استسلام ورفع بصره الى
كأنه يتوسل وقال بصوت رزين ، الشفاء هو الحياة والحياة
يا حبيبتي هي الحب وكأس الحب فاك فهيئني رشفة منه .
قلت : ولكن الكأس لا شراب فيها فلا تطمع . قال أنا
أعرف بدخيلة الكأس ! ونجاة دخل الطبيب ونظر الى
المريض مستريحاً لحاله ولمح على وجهه بهاء الرضا وفي عينيه
التماع الصحة قربت على كتفه وقال : أراك شفيت ؟ فأجابه

يا له من شفاء ! ولكن الناقوس دق والمصلي لم يتم صلاته
فقال الطبيب مازحاً : ان كثرة التعبد كفر ... ! وهممت
بالخروج متعثرة فاستوقفني الطبيب بنظرة توصل وأشار
الي في خفاء واقترب مني وهمس في أذني بحذر : أهنتك
يا آنستي فقد برعت في تطييبك وفي لحظات عاجلت مرض
أيام قدر لي أن اقوم بتمريره فأنت له خير من ... وهنا قطع
حديثه على إثر صوت الخطيبة وهي تخاطبه أنسيت مريضك
يا دكتور ، وقد دخلت على غفلة ولم نشعر بها ثم رمتني بنظرة
عييت عن تفهم معناها وهممت ان أصافحها ولكنها غضت
الطرف عني متشاغلة بخطيبها ؛ أذهلني ذلك وأشكل على
الأمر وخشيت أن يكون قد جاءت من زمن ووقفت
متوارية لتسترق السمع ... لا بد ... لا بد ... نظراتها تخيفني
على أني حاولت ألا أبدوأمامها مضطربة فاغتصبت بسمة لها
وقلت أن مريضك طلبك كثيرا وكان علي وشك أن يبعث
اليك رسوله فضحككت وقالت متهمكة : هل أوحى اليك ؟

ثم اتجهت نحو المريض وناجته بأعذب ألفاظ الجنان ولكنه
لم يتحرك وأظنه تغافل ولبثت تداعب شعره بأصابعها وتمطف
عليه وهو لاه عنها كأنه في شبه نوم أو تناوم ، كانت صورتها
فاتنة أعني صورة عطفها وحنانها على مريضها وقد جعلتها
العاطفة فبانت لناظري معجزة سحرية وكأن الطيب أخذ
بفتنتها وروعة موقفها فظل ساهما لا يتحرك ولا يتكلم يتلهى
بالنظر الى المريض أنا والى محتويات الحجرة أنا آخر ولكني
كنت ألاحظ في خفاء استراقه النظر اليها في عجب ولما
عيل صبرها خاطبت الطيب أراه نائما وأظن الطيب كان
أعرف بدخيلة أمرها فأجابها بصوت حزين يشف عن الحسرة
الدفينة على حظها ... نعم أنه نائم فدعيه يستريح ولحت في
عينه ما يقوله لها لولا احترام عواطفها . اجل لولا ذلك لقال
لها إنه لا يستحق رحمتك وعنايتك وحبك دعيه فانه يبغيضك
وانسحبت أنا دون كلمة وشاءت أخته ان تستبقيني ولكني رفضت
بدعوى الحرص على كرامة الخطيبة ، وضرورة العودة الى

المنزل لشأن فيه . وعدت الى نفسي بعد أن خلوت بها
فأمست دخیلتها وادرکت الحقيقة المخبوءة خلف كبريائي
واحسست ان الحب قد سرت حرارته في شراييني ورأيتي
أسبح في عوالم مشرقة جديد فيها سحر وروعة وفيها فتنة
وجمال . ولكن كأن مبضعا كان يحز في قلبي فيحملني على
التوجع في خفوت ووددت لو أبيع نصف عمري لشفاء دواء
يشفي ذاك القلب الوجيع .. قد احببت ! يا للهول ! واخيرا
وبعد طول عناء ؛ فكيف أتصرف ؟ هل اسير طوع الحب
غير عابئة بغيري ام اطوى نفسي علي عاتي لأقضى علي قلبي
ليحيا غيري ؟ وتنزل علي شبه صوت من السماء رن في أذني
لا تعصني بحب الخير في سبيل حب الذات ؛ وحيال هذا
الخاطر ارتكز فكري على محط عقلي وعلى ضوء الخير ؛
رأيت الحق يقضي بأن أنسى كل شيء ، عدا الشفقة على
عاطفة الخطيئة . فقلت لنفسي : ولكنه لا يحبها وقد يشقيها
فقلت لي نفسي ولكنها تحبه وقد تسعده فينساك . وهنا

صح عزمي على أن أكون القربان على مذبح الخير في سبيل
إسعاد أخت لي في الأنسانية ! فتمز أيها القلب بهذا الخير
الخالص واتخذ معوانا لك على الشفاء !



حبست نفسي داخل منزلي لا أرى أحدا ولا يراني
أحد لأن نفسي المهمومة واحلامى القائمة حملتني الى دنيا العزلة
والانفراد حتى لا أشوه جلال هذا الصمت الذي يخيّل الى
ان راحة نفسي متعلقة به كما حملتني ان أحنو عليها وأرفق بها
فليس عندي من يرعاها وبعد ايام ثلاثة وصلتني هاته الرسالة :
عزيرتي

(يا لصفاء قلبك !! أتعرفين الفتاة التي تساهمين في سعادتها
وتقدمين نفسك قربانا على مذبح إنقاذها؟ انها رمتك
ورمت صديقنا الدكتور بما لا تحبين فقد قالت - جزاها الله -
انها دخلت لتعود خطيبها فوجدتك بقرب الدكتور وهو

يميل عليك ... والآن كوني عذيرتي على سرد ما تكرهين
وشفيعي لديك استجابتك لنداء قلبك والعناية بأخي الذي
يحبك ولعلك تعرفين بعد الآن من ذلك الحادث لأن تلك
الفتاة التي تضحين في سبيلها بقلبك ونفسك غير جديرة
بالتضحية ٥

وبعد فتعالى إلينا على عجل فأخى يدعوك ليل نهار ، وقد أمرني
أمس أن أوصد عليه الباب وألا أسمح لعروسه بالدخول عليه
بعد الآن . وقد آلتى أكثر أنها أساءت الى الطبيب من
حيث لا تدري ، فقد شاء أخى ألا يعود مع أنه طبيب
الأسرة والصديق الوفي منذ الطفولة ، على أنى وارىت سوء
تصرفه وأفهمت الطبيب أنه سيسافر عند أخته . ولعلك
تدركين مبلغ حب أخى لك وكيف ضحي بصديقه في سبيلك
يا عزيزتي حسبك ما فعلت وعودى الى الرحمة التي ما فتئت
تغمر قلبك الطبيب الرحيم . ودمت للمخلصة .

فيا هول ما رأيت الخطيئة الكاذبة المجرمة .. بأي عين رأيتي

وكيف أباح لها ضميرها أن تسيء الى فتاة دون جريرة اقترافها
قد يكون لها العذر وقد لا يكون . قد يكون لأنها مغبونة
وقد لا يكون لأننى أبداً أمامها حذرة . ولكنه الشك .
الشك الذى يتلاعب بذهن كل إنسان وكم عذب من قلوب
وضمائر ، وكم خطم من بنيان عتيد . بوى لو تقضى القوة
الهائلة على الشك الذى يطغى على الحياة ويشوه الحقائق ...
الشك يخامر كل ذهن ويصل الى كل قلب حتى الذهن
الخصب والعقل الناضج . والشك يولد معناً ، وعلى حسب
نزعات الإنسان يشتد او يضعف ، وعلى حسب الوازع يبدو
أو يخفى . أنا لا أعيب على الخطيئة تصرفها لأنى اعرف هم
قلوبها ، ولكن من يبرئى اذا ما وصلت هاته النقيصة الى
سمعه ؟ وهكذا الأقاويل تجمل بالأصباغ وتحلى بالمحسنات
الفكرية لتنال حظها فى سوق الأباطيل !

(لقد قضيت بعض الليالي قعيدة هم ناصب وفكر شاغل)
حتى جاءتنى الصديقة يوما وأخذت ترجونى ان أرافقها لمنزلها

ولكنى رفضت ذلك في لطف ووعدتها ان أزورها قريباً ثم
عاد بنا الحديث عن الخطيئة وتصرفها وواجب انتقامي منها
لكرامتي المنتقصة وكانت الصديقة حاتقة عليها ، فأخذت
أقلل من حدة هاته القسوة ، وآلئى أن تضيف قسوتها إلى
قسوة أخيها وقسوة الأيام عليها وشئت أن أصور لها مبلغ
أحقيتها في تصرفها فقلت : إنها تصون حبها وتحرص على
خطيئها وهى فتاة عادية تعلمت عن طريق الوراثة ، فكيف
تحتمل أن يخون الزوج وزوجه والخطيب خطيئته من اجل
فتاة ثم مر بذهني خاطر غريب فابتسمت على مضمض وقلت
حسن يا صديقتى ما حدث ، إنها حسنة تسوقها اليها الأقدار
لنتعاون بها على إطفاء جذوة حب أخيك المشتعلة فابثي له ما
حدث وتعالى اليه بالخطيئة فى جو أنقى وأطهر ، دعيه يظن
بى سوءاً فقد يذهب ذاك المنطق بعاطفته فينساني وهذا ما
أريده ... لقد ابتسم القدر للخطيئة بسمة عريضة أتمنى أن
تظل وضاعة حتى تشيع على قلب الخطيب فيجبو خطيئته

بالحب والولاء . وظلمت دائبة على الصمت لا يعنيني غير أن
يمر اليوم فأحمد الله أن نقص من عمرى يوما ، ومللت كل
شئ حتى الكتابة والقراءة والرسم والموسيقى وعدت ارجو
ان يقيم بينى وبين الخطيب سدا منيعا ، وعامت فجأة عن
طريق الصديقة أن أخاها سيفادر هاته البلاد الى فرنسا
للاستشفاء وقد صح عزمه على السفر بعد أيام قلائل وأهابت
بى لتوديعه وبعد حديث ملح وعدتها بالذهاب على شريطة ان
يكون ذلك على المحطة ليكون الوداع قاصرا على تحية عجل
فلا أضيف الى هموم الخطيبة هما جديداً ولا أوقظ فى نفسه
مشاعر قد تكون أوت الى الرقاد . وحان موعد سفره
فتوجهت لتوديعه وراح يسعى الى متباطئا شاحبا ، ولما دنا
منى تركتنى أخته ولعلها تعمدت فلم أحاول الفرار حرصا على
كرامته وخشية أن يظن بى الظنون . صاحنى بحرارة وشد
على يدى ليضع فيها قوة عاطفة - على ما أظن - ثم قال بصوت
خفيض : طمأنينى .. أصبح ما حدث ؟ قلت فى عجب

ماذا ؟ قال : لا توارى : أصبح ان الدكتور ... فاعتصبت
ضحكة وقلت : أوه أما زلت تذكر ؟ صدقني ان ذاكرتك
قوية ... لقد اغتصبها وتمتع بها فيما أعتقد ! قبانت في وجهه
سورة الغضب وقال : لا .. عينك تكذبان لسانك ! قلت
في بساطة : وماذا يهمك ... انت على سفر الآن فلا تهب
وقتك لغيرك ودعني اقول لك : أتمنى لك الصحة والسعادة
هناك . قال : آه .. إني غيور .. غيور من الخيال ؛ غيور
الى أقصى حد ؛ ثم عض على شفته وصر بيده على جبينه
متأففاً ثم أردف : لك الله ! قلت : لقد حدث ما حدث
على غير ارتقاب . على كل حال كفاك نبل عروسك فوارى
المرارة التي علت وجهه خلف بسمه قصيرة وقال : كل شيء
فيك يؤكد براءتك . ثم سحب يدي فظننته سيصالحني
ولكنه استطرد : اكتب لي دائماً لأستمد منك قوة ترتفع
الى السماء فيهدأ بالي ويطنن قلبي .. اكتب لي ولا تحاولي صد
تيار عواطفى بالحذر والتحفظ فان ذلك يشوه جلال الذكرى

والحب . وكان يتكلم وكأنه يختطف الكلمات من أعماق قلبه
ليسوقها الى هينة وكنت استمع اليه على حين ظل نظري
عالقاً بالأرض ثم تطفر خواطري الى السماء فأتابعها ولم
أستطع ان أرد احلامه الى حظيرة الصمد لعلمي انه علي سفر
وفي حاجة الى السلوي والعزاء ولما لم اجبه سكنت قليلاً ثم قال
أنا واثق من انك ستحرصين على حبي وستكونين لي أليس
كذلك ؟ قلت ... قال : تكلمي ، فلزمت الصمت ايضاً
قال : كلمة واحدة اريد ان أسمعها لأستعين بها على حكم الأيام
على ، وهنا جاءت العروس والشحوب يغالب ألوان التجميل
وقالت : انهم يريدونك ، وقبل ان يتكلم قلت : انه يحدثني
عنك . فانزوت مني ونظرت اليه لتحمله على واقعها فلم آبه
وأتممت : يوصيني بك خيراً ويحتم على زيارتك والعمل على
سلوتك ، لأنه لا يطمئن الى أخته لكثرة مشاغلها المنزلية
وتركتها وسرت الهوينى وحدي بعد أن أشرت الى الصديقة
ودق الناقوس معلناً قيام القطار فمال عليه الجميع يقبلونه

وإصافخونه والخطيبة تبكى من فرط التأثر، وهو سارح
ببصره، يرد تحياتهم في اقتضاب، وأنا في مكاني ذاهلة، لا
أقوى على النطق والكلام وفي هاته اللحظة أدركت حقيقة
تصرفي الخاطيء، وتنازعني خواطر مؤلمة، ووددت لو افديه
بدمائي. أجل لقد سافر، ولعل القدر شاء ان يسخر مني،
فسلبنى هدوء نفسي، واطمئنان روحي، وبات قلبي خافقاً
وثاباً، كأنه يرغب في الفرار الى حيث لا أدري! وفي دقيقة
واحدة، تنازعني رغبات عديدة، بين الحب والبغض،
والرغبة والكبت والمتعة والحرمان، وظللت هائمة في فضاء
هاته الرغبات أحلق في السماء آناً، وأهبط الأرض أحياناً،
أود كل شيء ومع ذلك بي عزوف عن أى شيء! والعجيب
ان الأيام راحت تمر بي متشابهة مملة وانية؛ وشعوري يزداد
قوة وغموضاً ولهفة؛ وأنا احترق تحت نير مشاعري
وخواطري؛ وتبدولي الأحلام التي ألفتها وضاءة؛ قائمة
والأخيلة التي تراودني متحركة باسمية؛ ساكنة واجمة؛ كما

كانت عواطفى احيانا تتلاشى خلف ضميري الذى يضىء
أمامي وجه الحقيقة ، فأراها على غير ما عهد بها حزينة كثيبة
وأرى طيفي فى زاوية القدر أمامها وهي حياله هادئة ، تود
أن تخنقه - لو استطاعت - لتفسح لها الطريق ؛ ثم أرى
طيفي يتضائل أمامي وأشعر أنه بات لا وزن له أمام
ناظري ، وأنه لا يمتاز بشيء عن الأطياف الوضيعة ؛ تلك
التي تقيم سعادتها على انقراض غيرها وتشيد أمانها على تحطيم
أمانى غيرها . هنا ادركت الحقيقة الواقعة الرهيبة ، وتحت
تأثير هذا الادراك ظلمت أبكي حتى استفقت الى نفسي ،
ورأيت الحقيقة على غير ما رأيت ، رأيتني لم أجن ذنبا وكل
ما هنا لك أني اسير فى طريق لا حب مليء بالأشواك وفى
مقدورى ان أنزع غنى الرخاوة واللين ، فأمد يدي بقوة الى
هاته الأشواك ؛ فأزيلها لأهين الطريق للسائرة الضالة
هناك ، وفى مقدورى ان أزيح من أمامها ضباب خيالها ،
لتبدو الحياة أمام ناظريها كما تحب وتهوى ، وفى مقدورى

أيضا أن أعيش في سماء أحلامي لاهية بخيالي ، ما دام الله قد
خلقني طليقة الروح ، ثم يرد إلى فكري البعيد ، فأسأل
نفسى .. ترى أتسعد الخطيئة إذا شقيت أنا ؟ ويفتر الغيب
عن بسمة سريرة فيها التمتع السخرية الخاطف ، ثم يهمس
إلى هذا الغيب بأن كلتيما ستعيش شقية ؛ فهو يحبني ولن
أستطيع أن أبادله الحب ، وهي تحبه ولن يستطيع أن يبادلها
الحب ، ثم أسمع من وراء الأجيال صوت الشاعر يوقع على
قيثارته لحنا شجيا محزنا ؛ وتفتر شفتاي أنا أيضا عن ابتسامة
ساخطة ، وأضحك ضحكا هو إلى الجنون أقرب ، وتمر أمام
خيالي صور النساء الضاحكات الباقيات اللاهيات ، فأرى
شبه طابع على وجوههن هو بعد التفرس طابع الشقاء فتعود
إلى ابتسامتي الساخطة ، وضحكي الجنوني ؛ أمقدر لهذا
البلد أن يشهد سعادة امرأة سعادة أكيدة ؟ أمقدر للتاريخ
أن يسجل أنها وقفت في دنياها عن طريق قلبها ؟ لقد عاشت
المرأة طوال الأجيال شقية بعواطفها ؛ راضية عن شقاوتها

فألى متى تخضع لنير عبودية التقاليد والأوضاع غير المشروعة ؟
أجل الى متى تخضع هذه المرأة التي قضى عليها قانون الحياة
بسجن القيد ؛ فشوه محاسنها ، واستذل عواطفها ، حتي
عجزت عن تأدية رسالتها عن طريق الكمال المطلق ؟ وفي
الواقع أن صحو المرأة في هذا القرن ، وانتشاءها بعد طول
إغفاء قد فتح أمامها أبواب الحياة الصحيحة أمام بصيرة كل
إنسان ، وشعر الرجل عن يقين بضرورة تحريرها تحريراً
خالصاً للأوممة ذاتها ، فليشد الرجل إزر المرأة بقدر ما
يطمع فيه من سعادة وليفصح لها الطريق ؛ لتخطو نحو
العلاء ، محطة يسراها أغلال الشقاء .

بعد هاته الثورة النفسية الهائلة ، هدأت نفسى حيال
خواطري وكدت أنسى خواطري الأليمة ، وقد ظننت أن
الخطيب تناسى ماضيه بحاضره ، فلم يكتب الى ، وسرني
هذا التصرف ، إذ أدركت أن الله قد حباه روح السلاوى
ولكن على غير ارتقاب جاءني هاته الرسالة :

حبیبی

وما الحياة اذا خلت منك ؟ أنت ينبوع استمد منه الحياة
فيحلوا لي ان أعيش منه وله ، أنت دنيا ، وأنا عبد الدنيا
وأسيرها ، أنت نور ، وأنا خلف النور أسير ، أنت إلهة الفن
وأنا فنان أعبدك ، أنت قبس من عند الأله ، وسأظل أرنو
للقبس حتى أنال حظي أو اهلك دونه ... أنت .. أنت ،
ولا يفسر معنى أنت إلا أنت ! إن قلبي معبد أنت ناقوسه
فاعز في فيه أغاريد المحبة ؛ لأحظى بالجنة التي وعد الله بها
عباده المقربين ! افتحي عينيك الجميلتين لأرى فيهما قلبي
وهو يترنح كالتمل كلما بداله كأس تفرك الفاتن في عالم الأحلام
إن الحياة هنا فرحة مرحة ، ولكنها لا تهز حسي ، أو ترفه
عن نفسي ، لأن خواطري ومشاعري لا تستجيب إلا لك
ولا تستمد وحيها الا منك ، وهأنذا قد بدأت أشعر بأن
الحياة بعيداً عنك ؛ ضرب من السامة والعذاب ، فترفقي
واكتبي لي ، فعسى أن يتم شفائي ، فأسارع الي كنفك الظليل

ولك من الأشواق فوق ما تحتلين» أثرت رسالته في نفسي حتى لأوشكت ان تفسد على كل ما انتويته ولكنى عدت فقلت لنفسي : حذار فأنت ما قرأت ليس الا نزوة طارئة سوف تزول ؛ ثم عن لى أن أسلم نفسي الى الصمت ، فلهه يئأس ، فينصرف عنى الى خطيبته ، ورغم هذا الصمت فإنه دأب على مكاتبتى بمثل هذه الرسائل المشبوبة ، حتى اضطررت الى الكتابة ، فكتبت اليه رسالات موجزة فاترة لا تخرج عن الاستفسار عن حاله ، وتنبيهه الى ألا يضايقنى بأحاديث الحب التى برمت بها واذا كان ولا بد فليكتب عن المرأة هناك والفن والحرية والعمل .

ولقد علمت من أخته انه لا يكتب الى خطيبته إلا فى النادر ؛ كما علمت أنه كتب الى والدته يحتم عليها ان تعمل على التحلل من هذه الخطبة ، وقد هالنى حقاً هذا النبأ فحاولت من ناحيتى ان أثنيه عن عزمه ؛ وهيهات ان أوفق ، فقد تغافل عن هذا الشأن فى رسائله الى ، كما نفذت والدته مشيئته

ولكن هذه الصدمة نالت من نفس الخطيئة فأسلمتها الى
مرض شديد ، عانت فيه صنوف العذاب ، وألوان الآلام
ولازمها شعور اليأس والقنوط من الحياة ، والأنسان الغرور
فقبعت في عقر دارها لا تزور ولا تزار ، وأخذ الناس
يخلقون حولها الأشاعات ، ويرتجلون الأقاويل ! ويا للمرأة
البريئة من أقاويل الناس ! إن تجارة الأقاويل رابحة في سوق
الأباطيل وكأنت النفوس البشرية جبلت على حذق هياته
الصناعة ! أما هو فقد ظل يكتب الى مدى عامين ، في
عاطفة متأججة ، وأخيراً تعطلت رسائله دون ان أعرف
لذلك سبباً ، ولكني أيقنت انه شفى من دائه وأكد لي
ذلك ، ما عامته من انه اعتزم العودة قريباً ، ولعب الشك
دوره إلا انه شك ضعيف ، اذ خيل الى ان الرشد عاد اليه
فعرف قدر خطيئته - رغم فسخ الخطبة - وكثيراً ما تعرف
قيمة الشيء بعد زواله . وهنا حرت في تفهم عاطفة الأنسان
او بالأحرى في تفهم عاطفتي ، فقد اتسبنتني حيرة غامضة

وبدأت أحس أني أحبته بقدر ما دفعته عن طريقى ، وكأن
لحظة صحو صرت بي ، فاذا بي أدرك أن القلب الأنساني
دائم التطور . ولكن ماذا حدث ؟ أو ليس القلب يحيا
ويموت ؟ ومتى استقرت النسمة فى مكان ؟ إن الفضاء
الوسيع ، وإن الرياض المليئة بالأغضان النضرة ، وأشتات
الطيور التى ترحم الفضاء ، طلباً لغصن ترتكز عليه فى
اطمئنان ، بيد أن هناك فى زوايا قصية طائراً حائراً لم يجد فنا
يتشبث به أو يستريح عليه ، فليبق هكذا حائراً حتى يأذن
الله له بالهداية والهدوء !!



وجاءتني أخته ذات يوم منبسطة الأسارير وهي

تقول : بشري يا صديقتي ! قلت : خيرا ، فقالت : سيعود
أخي بعد أسبوع ، وحبذا لو تشاركيننا سرورنا . وهنا
أحسست ان قلبي يخفق خفقات تؤذن بقرب حادث جديد
كما انتابني شعور غامض ، يمتزج الفرح فيه بالألم ! ولكنني
بإلطف اعتذرت عما دعتنى اليه ، دون ان أدري سبب هذا
الاعتذار ، ثم اضطررت اخيرا أن اعدّها بالزيارة في القريب
بعد إلحاحها الشديد ، ومرت الأيام وأنا اتخيله أنا راضيا عن
دنياه ، وآونة برما بها ، ساخطا عليها ، وقد وطنت نفسي
على احتمال جفائه فإني اعرف انقلاب الحب الى قسوة او
انتقام ، اذا لم ينل الحب رغائبه ! وسرت حرارة عدم
الاستسلام في دمائي فانتشيت اذ أحسست بقوتي وأيقنت
ان المرأة في مقدورها مصارعة الخطوب ، ومقارعة الاهواء

ألا ان طيف الخطيئة تراءى لى واجها حزينا ، فتألمت له ؛
واشفقت عليه ؛ ولكني تمنيت ان يلهمه الله الصواب فيعود
الى خطيئته ، فأكون قد أسديت الى كليهما يدا ، تنطق
بقدره المرأة على التضحية ومعالجة ما استعصى من الأمراض
الاجتماعية ، كما ان فى وسعها ان تهيب لنفسها حياة ، تركز
على الصدق ، محطمة فى سبيل ذلك مطامع المتطفلين ،
ورغبات اللاهين ، وان تسعد نفسها وشريكها وشعبا بأسره !
نعم فى مقدورها ان تفعل كل شىء اذا عرفت كيف تصوغ
كل شىء صياغة جميلة بيدها الصنّاع ؛ ولكن أياكون حظ
المرأة المجدة العاملة الوفية ، حظ الالهية المتبيلة الغادرة ؛
وترقبت ان اسمع جوابا لسؤالى ، ولكني لم اظفر بغير
الصدى ؛ وعدت الى نفسي اسئلتها أو ليس بد من
أن ألقاه ؟ فقالت نفسي : بلى ! لا بد ، قلت : ولكن
أوليس من الأصح الا أشعره باهتمامى حتى لا يفتح قلبه عن
عاطفة قد واراها الزمن ؟ فقالت نفسي : فى مقدورك أن

تقابليه في احتشام على صورة لا تبيح له الاسترسال في أخيلته
أو تعيده الى دنيا أحلامه الماضية ولكي يعتقد أن جفاء
الكتابي وسكوته الأخير لم ينالا من نفسك ، وسيان عندك
كتب أم لم يكتب وأحبك أم لم يحبك بل تعمدي أمامه
الاشتغال بأمر دنياك كأن هناك ما لا يعلمه يملك عليك حسك
ووجدتني إزاء حكم نفسي ساكتة ولأمرها خاضعة
وبدت صورة الحاضر أمامي واضحة جلية ؛ فعاف قلبي حكم
نفسى وصح عزمي على عدم لقياء ، حتى لا أهيب به الى
الرجوع لماض فات ، ثم جرت شواغلي ذيل التناسي على هاته
الخواطر ؛ وكدت أنسى كل شيء حتى جاءت الصديقة على
غير موعد وعلى وجهها كآبة الحزن العميق والألم الغامض
والاضطراب العميق .

وبعد أن استقر بها المقام ظلت ساكتة على غير عهدي
بها تحاول أن تنظر ، وعلى شفيتها تبدو معاني بعض كلمات
تود لو تبدو ولكنها تختفي تحت تأثير مشيئتها على ما أظن ..

هالني أمرها وعجبت لحالها فأهبت بها لمصارحتي بما وراءها
فأجابت وقد خيل الي أنها تصوغ الأجابة ، صياغة لا صرامة
فيها : بي من الهم مالا أعرف سبيله ولا مأتاه ... قلت وأنا
أحنو عليها : ولكنك تدري كين بلا ريب موضع الألم من
نفسك ، فدمعت عيناها ثم قالت بعد جهد بصوت خفيض
لي صديقة لا تعرفينها ، أحبها صديق لشقيقها وبادلته الحب
والوفاء ، وتعاهدا على الزواج لتوافق في ميولهما وطباعهما
ولكن حدث أن انكشف حبها للأخ قبل أن يتقدم الحبيب
إطلب يد الأخت فتار الأخ وعظم عليه الأمر وظنه جرماً لا
نهاية لفظاعته ؛ ورد الرجل خائباً وهدد الأخت بوعيد جائر
مع ان هذا الأخ نال من عذاب الحب أقصى ما يناله امرؤ
وكان يمثل دور غرامه على مرأى من أخته فأساء اليها من
(حيث لا يدري إذ فتح أمامها باب العاطفة وأراها أضواء
الحب وظلاله ، وأشعرها سحره وجماله ، وها هو اليوم ينكر
ما للعاطفة من سلطان .

أدركت حقيقة قصتها من خلاصة حديثها وأحسست أنها
تخجل أن تبوح بكل شيء وقرأت في عينيها صراخ قلبها
الهائم ، وضجيج روحها ، وعذاب نفسها . فقلت مشجعة :
أتراها أنت ؟ قالت بصوت المواربة : لا ... لست أنا !
قلت وأنا أحنو عليها : وهل الحب جريمة ؟ .. أقسم أنك !
فارتاعت الفتاة وفاض بكاؤها واضطرت حيال عطفى أن
تصرح بأنها هي ... قلت : وما نتيجة عسف أخيك ؟ ..
قالت والحزن يملأ صوتها : يحول بين الزواج ... قلت :
وما وجهة نظره ؟ قالت : تبادل الحب بيننا فإنه يعترف
أن تصرف صديقه خيانة له وتصرفي خيانة كبرى لامبرر لها
فضحككت في تهكم وقلت : يا الله أيحلل الإنسان لنفسه ما
يحرمه على غيره ؟ كان يجدر به أن يتعظ بنفسه .. فلكتها
كبرياؤها ومسحت دموعها والتمع في عينيها ضوء الارتياح
وقالت في عزم : لا فائدة من تعنته .. أنا له وهو لى ...
مهما قامت الحوائل بيننا فلن يستطيع الإنسان ان يفرق بين

القلوب التي جمعها الله تحت شريعة الحب والوفاء .. سنتزوج
سنتزوج ... أعجبني في الحق تمردها لأنه يثبت أن لها نفساً
قوية حرة ولكني وارىت إعجابي وقلت : يا صديقتي رويدك
ففي مقدورك أن تحمل أخاك على احترام ميولك وتقدير
غواطفك بالصبر والأناة والحكمة ، وحاذري ان تشوهي
رغباتك بتصرف لا يرضيه ... أنا واثقة انه سيخضع لك في
النهاية ويحقق أمانيك ... عليها تجربة يريد أن يختبر بها
قوتك وأرادتك فكوني قوية أكثر مما أنت عليه الآن .
وهنا شئت أن أخرج بها من دنيا همومها لأسرى عنها
فقلت : ولكن كيف حال أخيك ؟ فأغمضت جفניה وقالت
قد جاء بخير ولكنه عاد من الغرباء . قلت وأنا أتكلف
الضحك : وهل كنت تظنين أنه سيعود كما سافر ؟ ألا تعلمين
ان المكث في بلاد كهذه البلاد وخاصة فرنسا بلد المدنية
الماجنة والنور الخاطف كفيلا بتغيير خلق شعب كامل لا
رجل مريض ؟ الرجل هناك ينجح الى اللهو لأن الحرية أو

ما يسمونها كذلك مطلوقة العنان ومن يدرى يا صديقتي فقد
يكون هذا المرح هو باعث شقائه ، ليكن اليوم غريبا وغدا
يستأنس ثم تألفون طباعه الجديدة . فقاطعتني : إنك لا
تفهمين ما أعني . قلت ، بل أفهم ، لقد تعودت منه الهدوء
والجنوح الى العزلة واليوم جاءكم وبه جنوح الى الدعابة واللهو
فقلت : المهم أن تأتى لترى بنفسك فإن الحقيقة مرة لا
أقوى على إيضاها . قلت : إنك تقيمين من أسوار جهودكم
قانونا لا حق لك فيه أو تريدينه عابسا مكفهرأ ؟ لا لا إنه
رجل ولا بد له من الترفيه عن نفسه الكليمة ولا يريح النفس
غير الدعابة واللهو ؛ ولست أعني به اللهو المجرم الطائش بل
أعني به المرح البريء في غير استهتار أو عدم مبالاة ، قالت
لست في حاجة إلى فلسفتك الساعة وقومى معى لأن والدتى
مريضة وقد جاء ابنها بصاعقة أخشى أن تفقد نفسها معها .
بعد ساعة كنا فى منزلها وقد هالنى سكون المنزل على غير
ما كنت آمل ثم قادتنى الصديقة إلى الوالدة فوجدتها شبه

سريضة وإن كانت تغالط نفسها وتحاول أن تصارع ههما ،
وبعد أن استقر بي المقام جاء الأخ باسم مهلا ، لقيني بأروع
هما ظننت ، فتوارت رغبتى خلف عواطفى ولم أبخل عليه بتحية
خالصة ، أما هو فلم يجب ، ولعله اكتفى بتقبيل يدي فى
سكون ، قلت فى نفسى : هذه أول ظاهرة غريبة وشئت
أن أغالط أخته فقلت بنغم فكه : هذا ميثاق الشفاء أما زلت
تذكر وديعتك ؟ فلم يتكلم وحاول إخفاء دمه فى مآقيه ، ثم
قال بصوت كأنه آت من أعماق الوادى : إن أحسن ما أمتاز
به هو ذا كرتى قلت : حفظها الله لك وجعلها مستودعا لكل
ذكرى طيبة قال : وذا كرتك ؟ قلت : عيبى مركز فيها
ولعل الله يوم كون مواهبي ، كونها على ألا ذاكرة ، قال :
أحمدي الله على ذلك فلو كانت ذاكرتك قوية لكان لك
شأن آخر قلت : ومن أدراك ؟ ومر بخاطرى طيف الخطيئة
فاستطردت ، يهمنى أن تركز ذاكرتك على الواقع الجميل
لتهيب بنفسك دائما الى الحياة الوديعة ، وهنا بدأ أمامى

كالطفل يحاول ان يكتم أمراً في نفسه فتفضحه عيناه ،
فأدركت ان هناك أمراً يخفيه ولم يفتح فاه بل انحنى أمامي
بخشوع وخرج يجر ساقيه جرّاً ، والتفت الى الصديقة
فوجدتها تحاول إخفاء دموعها فقلت ؛ أسمحين أن أساير
أخاك برهة لأتعرّف دخيلة أمره ، فتململت وأرخت جفنيها
في صمت ثم قالت في لهجة القانطة ؛ لا يا صديقتي ! دعيه
يتصرف كما يحلو له ، وفجأة دخل الأخ يتعثر وعيناه ترقبان
الأرض وقد ارتسمت على شفثيه صورة ناصلة صفراء ؛ دخل
وبجانبه فتاة أجنبية ناهزت الثلاثين من عمرها هادئة المظهر
ثقيلة الظل ، ثم وقفت حيالى ولعلها كانت تستطلع الحياة
المصرية من عيني بنظرة عميقة فاحصة ، قدمها إلى وبوده
لو يتراجع ! وفي مرارة فتح فيه كمن يحاول أن ينطق بحكم
الأعدام وقال مشيراً إليها ... زوجتي ، فشمّلنا جميعا سكون
رهيب وكدت أن أفقد إدراكي لولا أن الله أدركني بقوة
من لدنه ؛ فاغتصبت بسمة وواريت عواطفى وقلت في هدوء

أهنتوها ، فغمغم بصوت مرتجف يحفه العجب ؛ وحدها ؟
فصمت برهة على مضمض ، ثم قلت بلهجة الحزن والأسف
المكبوح ... أجل وحدها ... أهنتوها وأعزيتك ، فغمغم
أهذه تهنتك ؟ قلت : تهنتة يحفها العزاء ، هل سمعت أو
رأيت فرحاً نهايته قائمة ، هناة نفسك ربما .. وعزاء شعب
وظل نظري عالقاً به والشرر يتطير منه ؛ ونظرت الى
الفتاة وكانت لا تعرف العربية وكتبتها بالفرنسية كلمة موجزة
تشرفنا ، وانحنيت في تهكم لا في إجلال ولكنها ردت التحية
في برود فخشيت ان ينالني من فرط الجزع ما يشوه جمال
أحلامهم فاختطفت نفسي من بينهم وخرجت مسرعة وأنا
اعتقد اني سأغدو قريباً حطاماً في حطام ، فكل خواطري
كانت تحوم حول تصارييف القدر ، وخضوع الإنسان
لحكم القضاء وتساءلت أترى ذلك التصرف قدر عليه ان
يكون ضحيته ام تلك مشيئته التي اختارها لنفسه ؟
قلت لنفسي عندما هدأت خواطري : وما عاقبة هذا الجنوح

الآليم . فى غير حق مشروع وما لى أنا وغيرى ؟ وهل خلت
نفسى من الهم حتى أضيف إليها هماً جديداً . وتنفست
الصعداء وقالت : يالك من شاعرة !

وهالنى أن تهيننى نفسى فوقفت أمامها قائلة : أنا للرحمة
خلقت ، وإن مهمتى تخفيف البؤس ، ورعاية الشقى ؛ بيد
المنى أمسح دموع المحزونين ، وبالسرى أفتح بصيرة
المتقاعدين ... أنا صديقة كل منكود الحظ ، أنا خلقت
للحياة ولم أخلق لنفسي .

واطمأنت لروحي وعادت الى مدامع الأسى ، ومر
بخطارى طيف الخطيبة المغبونة ؛ آه ! لو أنها كانت فتاة
طيش ودعابة ما جزعت لها ، فالرجال ينشدون هاته الغواني
فى كل مكان .. ولكنها فتاة قلب فوأسفاه ! لقد استودعت
الله آمالها وأودعت فى ذمة الشيطان مصيرها !....

يا إلهى لم خلقت الرجاء فى قلب المرأة ، وخلقت صولة
الفناء ليثمر الخيبة والمرارة ؟ ! لم خلقت لها طريق الحرية

وسيرتها في طريق العبودية ؟ لم خلقت للرجل جناحين
طويلين يحلق بهما في الفضاء كما يحب ويهوى على حين
خلقت المرأة بجناح كسير فأقعدتها عن الهوى الطليق ؟ لم
وضعت في حنجرتها أوتار النغم الطروب ، وقيدت فاهها بالنغم
الحزين ؟ لم علمتها العطف وقيدتها بالضعف ؟
رحمك يارب فقد خلقتها قوية رحيمة شفوقة محبة !
- لست أكفر - ولكن النظم والتقاليد غير المشروعة .
علمتها الضعف والاستكانة ؛ والتردد والمواربة ، كما قيدتها
بأغلال عتيدة ، وكل من حطمت أغلالها على ضوء الحق
والواجب كانت في شرعهم مجرمة أثيمة ! لست أريد أن
تستهتر المرأة وتلهو ، ولست أرمي أن تتلاعب بعطفها وحبها
وتقذف بهما كما يرجو هواها ، ولكني أريدها ذات كبرياء
وأنفة ، وأن تصون قلبها ولا تفتحه إلا لمن يقيم له صلاة التعبد
والإيمان ، ويعرف أن الصلاة فيه صلاة للخالق .
ولست أريد أن تماثل الرجل قوة أو تراحمه في ميدان

عمله الخارجى لغير غاية لاجئة بل أريد لها الحياة الكاملة
السامية فى بيتها إن كانت أما ، والعمل الشريف لمنفعة
وطنها إن دعتها الرغبة الى العمل . أريد لها السمو المطلق
فتكيف جمالها بروعة روحها ، وتكمل روحها بسحر تثقيفها
وتوسع من ثقافتها بدوام دراستها عن طريق الفكر
الخصب والاطلاع الواسع ، وباجللة فأنى أريدها مرتفعة
بنفسها إلى أسنى مراتب الجمال ، مخلقة بروحها فى سماوات
الكمال ؛ لتشعر الرجل الحياة الحققة فى كنف بيتها المنظم
الجميل ؛ وتشعر العالم بقدرة المرأة وقوتها على الأنشاء والتعمير !



حدثت في منزلنا حركة غير عادية وبعد التقصى
عامت أن هناك سكاناً حديثين فدفعني حب الاستطلاع الى
معرفة ما يمكن معرفته عنهم . ومرت بعض الأيام دون أن
أعرف غير اسم الزوج ، أما اسم زوجه فلم أعرفه ، وبينما
أنا صاعدة على الدرج عصر يوم حانت منى التفاتة ، فإذا بفتاة
قد عرفتها من قبل ، هي بعينها الخطيبة . تحيرت في أمرها
أتكون زائرة أم صاحبة المسكن الجديد ؟ وصاغتني فلقيتني
لقاء حاراً لا شائبة فيه . وفرحت كثيراً حينما عامت أننا
نقطن منزلاً واحداً وتراورنا بعد ذلك وتأكدت بيننا عرى
الصداقة ، وسرني أنها سعيدة في زواجها موفقة في حياتها وأن
زوجها الطيب يحبها حباً لا نهاية له ، ويعمل ليلاً ونهاراً على
راحتها وإسعادها وهو كما تعترف طيب القلب صافي النفس
له مكانة بين قومه ، وأظنها نسيت ماضيها فلم تحدثني عنه كما

حاولت أنا أيضا تناسيه ، وكم أشعر بالسعادة الحقة عند ما أراها
في بيتها مقبلة مدبرة ، راضية عن دنياها ، تسعى جهدها في
سعادة زوجها وتخلص له الحب ، وتبأذله الوفاء . لقد أدركت
من سلوكها أن المرأة إذا واتاها الحظ برجل يحبها ويعمل على
إسعادها أهاب بها ذلك للرضا النفسى فتمنحه ودأبود وإخلاصا
بإخلاص ، وتخلق له من دنياه المحدودة دنيا من السعادة لا
نهاية لها ، وحمدت الله الذى جعل آخرة دنياها أفضل وأجمل
من الأولى ، ومرت الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض ، وفى
صبيحة يوم دخلت على الخادم معلنة قدوم صديقتي القاطنة
بالمنزل فراغني اصفرار وجهها وفاجأتني - وقد أنساها الحزن
على ما أظن السلام على - قائلة : هل جاءتك ؟ تعنى الصديقة
شقيقة خطيبها بالأمس ، قلت وقد تملكنى الاضطراب الجازع
لم أرها منذ أسابيع ، فاستوت واقفة والدموع تنهال على
وجهها في غير تمهل ثم فرت من أمامي وأخذت أسأل نفسي
ترى أين ذهبت ؟ لقد ساقها الحب الى ... بلاريب ! ولكنه

تصرف شائن . وتملكنى الهم والقلق طوال اليوم ، وفى المساء ذهبت إليهم مستعامة عنها ، فعرفت أنها لم تعد ، وأنها خرجت فى الصباح وهم نيام ، على غير سابق إشارة أو إنذار . ودخل على الأخ وأنا أحادث الوالدة فوقف أمامى فى هدوء ؛ وهذه أول مرة ألقاه فيها بعد زواجه . وما كاد نظرى يقع عليه حتى وارى نظراته خلف بسمته ، واستويت واقفة وقد تملكنى شعور غامض حزين ، وبدأ لى أنه لا يمتاز عن المجرم بشئ ، فعليه تقع جريمة الأخت ، إن كان ثمت جريمة ! ولكن الوالدة حملتنى برجاؤها على المكوث قليلا لأنها تكاد تجن من هول الصدمة ، أما هو فأنثنى أمامى وقال بصوت الثائر : فى أقرب وقت سأعرف مقر وجودها ، وستنال عقاب هذا المسلك المعوج . قلت وأنا أوارى همى : ولكنها لا تستحق ! فزاد غضبه وقال : أتقرين هذه الخطيئة ؟ قلت : وهل تظن أنها خطيئة ؟ قال : نعم ، قلت : اهدأ أولا ، ثم فكر فى علة تصرفها ؛ قال : لا سبيل لغفران جنايتها ! قلت

إنها لم تجن ذنباً ، كل ما فعلته أنها تنتقم لنفسها قال : تنتقم ؟
يا للعجب ! وممن ؟ قلت : يبدو لي أنك أسأت إليها قال :
أنا ..؟ محال ! قد حافظت على كرامتها وشرفها . قلت :
إنها ليست من الطيش حتى تعجز عن صيانتها فقد ناهزت
العشرين وفي مقدورها أن تكيف حياتها عن طريق عقلها
وبدت الوالدة غير مرتاحة لهذا الحوار ، لما كان يبدو من التأثير
على وجهها الحزين وكأنها أرادت أن تضع حداً لحديثنا
فقالت : قم فاذهب الى بعض أقاربنا أو صواحبيها ، فمساك
أن تلتقي بها هناك ، فضحك الأخ في تهكم لاذع ثم قال : إنها
ليست هناك ، إنها عند فلان بلا شك ، على أنى بعد ساعة
سأعرف مقرها وأنا هنا لم أبرح مكاني فاطمئني ، ولكن
أستطيع الأم أن يطمئن قلبها لهذا الكلام ؟ قلت قد فهمت
من قولك أنك هناك صلة بينها وبين فلان هذا ، فأطرق
برأسه وأشار بعينه ؛ أي نعم ! فاستطردت : أو كنت
تعلم ؟ قال : بل طلب يدها فرفضت ، قلت : ولم رفضت ؟

لأنه يلعب بقلوب المذارى ! قلت : ولكنك تزوجت وصلاح
أمرك بعد الزواج فيما أظن ، فنظر إلى نظرة خاطفة ، وقال :
ماذا تعنين ؟ قلت : أعني أنه على طرازك ، والذي أباح
لك الزواج ؛ أباحه لغيرك فقال في تهكم : إن حمية الدفاع عن
ابنة جنسك تشوه جلال الحق . قلت : أنا - ها ها ها ها ... !
أنا ؟ قد أكون أو تعرف الحق ؟ ... لو أنك تعرفه لما
عودت نفسك ظلم غيرك وأهلك ؛ يا إله السماء . أي دين
من الأديان يحرم الزواج العاطفي ، ثم ازداد صوتي صرامة
واقوة وأردفت : يا للظلم ! وهب الله الوالدين سلاح الرعاية
فاستبدلاه بسلاح التقييد ، أو ليست الحياة الزوجية إلا حياة
ائتلاف وتعاون ، فلم ترغم المرأة على هذا الائتلاف ، وكيف
ينتظر منها سعادة وهي تشقى تحت نير أحزانها وحرمانها ،
كيف تطالبها بالعدل وهي تسام العسف ، وكيف تمنحها
النور وهي تسير في الظلام !
من لي بمن يسن تشريعاً إجبارياً يهيب فيه بالآباء إلى

رعاية عواطف بناتهن واحترامه ميولهن ؟ نعم يجب أن يعمر
قلب المرأة بالحرية ، ليهنأ الرجل بالحياة الجميلة ؛ وإن امرأة
واحدة مظلومة لتجر على البلاد ذيل الشقاء ، فامنحوا للمرأة
الأنصاف والرحمة تعطيك الحياة مفخرة عن أعذب البسمات !
وهنا بلغ مني الألم مبلغاً ، فصمت قليلاً على حين جلوس هو
مطأطىء الرأس تبدو عليه الكآبة الخرساء ، وشئت أن
أزيد همه فاستطردت : والله لو استطاعت المرأة أن تنزل على
الرجل غضب السماء لما تهاونت . فاعتدل ، وبصوت متلعثم
قال : ولكنها من حسن الحظ رحيمة .. ! قلت : وهذا
عيها ! أجل عيب المرأة في رحمتها وعطفها وحبها الجم ،
فازداد اصفرار وجهه وقال بصوت مرتجف : لو كانت
المرأة كذلك ؛ لكانت الحياة جنة خلد للمخلصين ولكنها
والأسفاه لا ترعى حرمة الحب ، بل هي تستغل عاطفة الرجل
ووفاءه لتستعبده ! قلت : إنك تتكلم بلسان رجل يلعب
بقلوب العذارى على حد تعبيرك ، وهذا الرجل يجب أن تقيم

المرأة سداً منيعاً بينها وبينه ، هذا أنت ! أو تستحق حب امرأة ؟ لو كان قلبك يخفق بحرارة لعرفت كيف تحترم العاطفة على الأقل ، قال : لعل صرامة الحب عامنى كيف أتحداه ! قلت : ولكن الحماسة الوديعة جبلت على الخضوع لحكم العاطفة مهما أساءت اليها ، أما النسر القوي فسعادته هى الكفاح فى سبيل ما لا طائل وراءه ، وباليته كفاح يمت إلى الفضيلة بسبب !

لقد نسيت حزن الوالدة ولم ينبهنى إلا ما أصابها من إغناء فقطعت الحديث وتحولت اليها أرفه عنها ثم استأذنت على نية أن أذهب ، لأبحث عن الصديقة عند صواحبها ، وذهبت الى كل من تعرفها كزائرة ، محاولة أن أعرف مقرها ، ومرت الأيام تتبع الأيام والصديقة تتقاذفها دنيا مجهولة ، وأسرتها فى أشد حالات الألم والحزن والقلق ، وأخيراً وصلتهم رسالة منها تنبئهم أنها عند خالة لها فى بلد بعيد ، كما وصلتهم رسالة من خالتها تخبرهم فيها بمرض الفتاة ، وبضرورة الحضور .

وبعد أن سافرت الأم لحق بها الأبن ، وكان هناك حبيب
الفتاة فقام بينه وبين الأخ شبه عراك نقاشى أدى فى النهاية الى
الخضوع لمشيئة الأخت ، وعادت معهم وتم زواجها ، وذهبت
يوما إليها لأهنيئها ، فلقيتها على أحسن صورة أرجوها لها ، كما
وجدتها فرحة الى أقصى حدود الفرح ، تود لو يفيض سرورها
على العالم بأسره ، ولما خالوت بها ، حدثتني عن سعادتها وآمالها
فامحت ظاهرة الحلم تسيطر عليها حتى أنستها الواقع الرهيب
واقع الحياة المنزلية الخطرة ، ولم أر غضاضة فى مصارحتها بما
فى نفسى فقلت : يا عنيزتى بهمنى أن تقفى حياتك على إدراك
الواقع فتفرقى بين متعة الخيال ، وحقيقة الواقع ، فأنت ترين
أن طبيعة الزوج أو الزوجة ، غير طبيعة الحبيب أو الحبيبة
فالأول يكيف كل شىء بعقله والثانى يكيفه بقلبه ، وشتان
ما بين العقل والقلب ، ومهمتك الآن تركيز أخیلتك على محط
عقلك ، لتعرفى كيف تصونين نفسك ، واذكرى دائما أنك
قد ولدت من جديد ، فمن الخير أن تأخذى من الحياة بقدر ما

يسمح به ذهنك الكبير ، وحاولي أن تكوني لزوجك كما
يجب أن تكوني له ، واسمى جهدك في استبقائه بجوارك ،
راضية عن نفسه وعنك على مدى الأيام ، ولا بد أن تخلقي
كل يوم في بيتك منهاجا جديداً يشعره بتجديد الحياة ، فأنها
لعملية تحتاج لمهارة ؛ ثم حاولي الأشراف دائماً على مهامه
بنفسك ؛ يشعر بالسعادة الحقة بفضلك ، وحاذري أن تفتحي
قلبك للشك ، إذا بدا منه ما يريبك في حياته الخارجية ؛ فما
فيها من متاعب وعنت كاف لأرهاقه ، فلا تضيفي الى همومه
هماً ، أو الي متاعبه تعباً ، وانظري إليه دائماً بعين صافية لا
يشوبها ملل ولا سأم ، فذلك أدعى الى إشباع قلبك وإسعاده
ووطنى نفسك على أن تحرصى على سمادته وهناءته ، وثقي أن
هناك فارقا بين اليوم والغد : إن دنيا اليوم هي دنيا الأحلام
والخيال ، ودنيا الغد هي دنيا تحقيق الآمال . ثم حاذري أن
تخلطي بين تصرفك الطائش وذهنك الناضج ، فاسبلي
الستار على ما فعلت حتي ينساه زوجك ، فقد يذكره عندما

يفيق العقل من النشوة ؛ وقد يعظم الأمر في ناظره ، فيدرك
سوء تصرفك فيحز ذلك في نفسه .

ولقد كنت أعلم ما قام بسبب هذا الزواج القهرى ،
من النفور المكبوح بين زوجها وشقيقها ، فخشيت أن يؤثر
ذلك - لودام - في علاقتها بزوجها ، فقلت : يجب أن
تذكرى أن عاطفة الرجل تختلف باختلاف تصرف المرأة ،
فانهزي دائما أوقات الصفو بينك وبين زوجك وشقيقك ،
واعمل على التقريب بين وجهتي نظريهما ما استطعت ،
مستعينة على ذلك بما كان بينهما في الماضى من أواصر المحبة
والأخاء ، فعلى ذلك تشيدين صرح سعادتك الزوجية ،
وتجبرين كليهما على زيادة محبتك واحترامك ؛ وبهذا تضربين
أحسن الأمثال على يقظة المرأة المصرية ، ولباقتها فى تأدية
رسالتها ، رسالة الألفة والتعمير والأنشاء . وكأن هذه
الصراحة لمست منها موضع الداء ، فتململت ثم قالت : لقد
حاولت فى ذلك جهدى ، واستعنت بكل من تحسن الاستعانة

بهم ؛ حتي لأشكت أن أفشل ؛ قلت : تفشلين ؟ لا لا !
أرجو ألا تسمعين هذه الكلمة الخائرة مرة أخرى ، فللمرأة
التي تهز المهد يمينها ؛ لا تزال تهز العالم يسارها ، يجب
أن تعملي ! يجب أن تعملي !

عرفت الصديقة كيف تهيب منزلها الجديد ليظل أبداً
عامراً وعملت على تحقيق آمال زوجها وأشعرته السعادة
الحقة والنعيم المقيم . أما هو فقد جعلها خاتمة الحبيبات كما جعل
الله محمداً خاتم المرسلين . واتخذ منها الأخت والابنة والصديقة
والزوجة والحيدة ، ونسى دنياء بها ، وراح يهيب لها من لدنه
عرشاً وطيداً من الراحة الأبدية تتكىء عليه . وقامت بدورها
في أشباع رغباته المعنوية والحسية وأثبتت له أن المرأة
بأخلاصها وتضحيتها كفيلة بأن تهيب زوجها دنيا مليئة بالنعيم
والغبطة والسرور !

وما دامت الميول بين الشريكين موحدة ، والعواطف
متبادلة والرغبات متقاربة ، فالسعادة محققة . ولقد زرتها يوماً

فأحسست أن السعادة تسرى منها الي ، وشعرت أن ضوء
الهناءة يشمل بيتها حتى صورتها ؛ رأيته ازدادت فتنة وسحرا
وجالا ، واكتمال أنوثة . ولعل ذلك من فرط عنايتها بنفسها
وصحتها وشؤونها ، مرضاة لزوجها .

ونجأة جاءها شقيقها على غير موعد لزيارتها ، وكانت
الأيام قد مسحت من ذاكرتي صورة الأيام الخوالي ؛ فلقيته
كغريب لا عهد لي به ، ولا يهمني أمره ؛ ولا يعنيني شأنه
ولكن شحوب وجهه ، ونظراته الساهمة ، وصوته الخفيض
كل أولئك شف عن حزن مكبوت ... ولما تهيات
للانصراف استوقفني قائلا : لي معك حديث . قلت وكأنه
لا يعنيني : أمسيت بالخير يا صديقي ، ولكنها قالت : أخي
يدعوك ! قلت في عجب : أنا ؟ أنه يعينك . قال : أعني
حضرتك . قلت : « أفندم » !

فأجلستني الصديقة في رفق ، ثم انصرفت لبعض شأنها
على ما أظن ، وشئت أن ألحق بها ، فاستوقفني وقال :

أتذكرين الماضي ؟ قلت : لا أذكر غير ساعتى ، قال فى
نعم التوسل : ولكنى أرجوك ألا تستسامى لخيالك . قلت
عندما تخونني الذاكرة ينمو معها الخيال والفكر وكل شيء
قال : دعينى إذاً أذكرك . قلت : ليس هناك ما يدعو ،
وهممت بالانصراف ، إلا أن الأخت دخلت وحملتني على
الجالوس فاستطرد : أنت تعرفين أننى سافرت بغير قلب
وقد سلبتني به ، ولعل الله شاء إنقاذى بعد أن فتح لى الموت
ذراعيه ، فأرسل لى هاتفه الفتاة ترعانى وتخدمني ، ولما كنت
واثقا من أن المنية سوف توارينى ، لم أبخل عليها بشبه ود
جزاء فضلها ، وشاء الله أن أعافى ، وشاءت هى أن تحبنى .
وقضى القضاء أن أتزوجها !

صدقيني لست أدري كيف حدث ذلك ، وكأنى كنت
فى غفلة عميقة ؛ صحت على أثرها فوجدتني فقدتك فبكيت
فراقك وسوء طالعى . إنها رحيمة لست أنكر ، فقد سهرت
على مريضاً ، ورعتنى سقيماً ، فأنت ترين أنى مدين لها بحياتى

كان يتحدث بينما كنت أداعب منديلي أنا ، وحقبة يدي أنا
آخر ؛ وكأني عنه لاهية . إلا أن كلماته كانت تحو في سمى !
وبعد صمت قلت : وماذا يهمنى أنا من هذا الحديث ؟ فقال
بصوت حزين : أريد أن يهمنى ؛ أعني أريد أن تفكرى
بفكرى ، فقد عانيت من الهم ما لا قبل لى على احتماله !
قلت فى سخرية : ولم ، وتلك مشيتك ورغبتك ، وكيف
تتألم من تصرفك ؟ قال : لا تضيفى الى همومي المتكاثرة هم
قسوتك ، فقاطعته الأخت : رفته عن نفسك فلا شك أن الله
سيجازيك خيراً ، وقد أحسنت بتخليك عنها . فذعرت وقلت
تخلي عنها ؟ كيف حدث ذلك ولم ومتى ؟ فقال : نعم منذ
أسبوع ، وقد غادرت هاته البلاد ، قلت وقد ملكنى الحزن :
يا لظلمك ! قد تحملت المسكينة فى سبيل تمريضك كما تقول
كل شىء ؛ فهل هذا جزاء الأحرار ، فأجاب بصوت
مذبوح : لقد شوهدت كرامتى ، وهتكت شرفى ، وتلاعبت
بعواطفى ، وقضت على مالى ، وجعلت اسمى مضغة الأفواه

وقد أحزننى نبؤه ، وإن كنت تظاهرت بالرضا ، وقلت :
هذا نتيجة تصرفك بلا مساء ، قال : الآن أدركت !

قلت : لقد تعودت من الفتاة المصرية الجمود ! فليس
بعجيب أن تمنى من الغريبة بالأباحية التي ساقتها لك عن
طريق الرعاية والحب ، وأنه لحب زائف ، ابتدعته وحاكته
بمهارة ، وفاتك أنها ما فضلتك على أبناء جنسها لهوا ولعبا !
ولم لا تفضلك وهي تأخذ من المال ما ترجو ، وتلهو كما يحلو
وتتسيطر عليك وعلى أمثالك تسيطرأ لا حد له ، حتى إذا
عرفت أن يدك صدأت وان جيبك قد خوي ، لفظتك
واجتوتك ، وأنكرتك وأسقتك ، هذا إذا لم تتركك مضرجا
بدمك : والآن هل عرفت كيف تفرق بين حب الفتاة
المصرية والغريبة ؟ إن الأولى تحب الرجل لذاته . والثانية
تحبه لمادته ! إن الأولى تحبك زوجا . فقيرا أو غنيا ، وسيما
أو دميما . أما الثانية فتتمسبك غنيا وسيما . انها تحب فيك
رغبتها وشهوتها ، وشتان ما بين العاطفتين ، لقد تقدم إليك

الحب الأول باسطاً إليك أجنحة من السعادة عن طريق
فتاة مصرية طاهرة بريئة ، فعدرت بها دون ذنب ، فشاء
القدر أن يجازيك شراً بشراً ، وغدراً بغدراً !

ولم يدعني أتم قولي ، بل قاطعني قائلاً : لو رأيت الفتاة
الأجنبية في بلادها كيف تدير بيتها ، وتربي أولادها لعجبت
هي تجعل من بيتها فردوساً مليئاً بالمتع مع الاقتصاد الوفير ،
وذلك عكس الفتاة المصرية التي تسرف في مالها ومال زوجها
لتشبع رغباتها ، ومع ذلك لا توفق في إدارة بيتها كما تعجز عن
تركيز حياتها وذلك هو ما خدعني وأغراني بهذا الزواج ، ومع
ما نالني فيه ، فإني لا أنكر حسن تدير المرأة الغربية لبيتها .
فتملكني الغضب وآلني اعترافه فقلت : أتريدون
لأنفسكم السعادة على أنقاض وطنكم المذبوح أيها الأثرون ؟
وهب الفتاة المصرية كما تقول سيئة التدبير ، أفعجزتم أو
عجزنا عن الإصلاح ؟ إن المرأة الغربية تعلمت الاقتصاد ،
وحسن التدبير ، عن طريق أيها وأخيها ، فالرجل هناك لا

يَقَامِر بِمَالِهِ فِي سَبِيلِ الْمَلَاهِي وَالْمَرَاقِصِ ، وَلَا يَضْحَى بِعَصَاةِ
مَوَاهِبِهِ قَرْبَانًا عَلَى مَذْبَحِ الْأَغْرَاقِ ، وَلِهَذَا تَنْشَأُ الْفَتَاةُ الْغَرِيبَةُ
نَشْأَةً اقْتِصَادِيَّةً مِنْذُ الصَّغَرِ !

وَحَسَبَ الرَّجُلُ الْمِصْرِيَّ فُخْرًا أَنْ يَضْحَى بِشَطْرِ مَنْ
وَقْتَهُ فِي سَبِيلِ إِصْلَاحِهَا ، فَهُنَا وَحْدَةً تَنْتَظِرُ الْمَغَامِرَةَ فِي سَبِيلِ
الْأَنْقَازِ ، ثُمَّ هَبَكَ تَزَوَّجْتَ فَتَاةً جَاهِلَةً سَازِجَةً ، أَوْ لَيْسَ فِي
مَقْدُورِكَ تَرْوِيضُهَا عَلَى مَا تَحِبُّ وَتَهْوِي ؟ وَهَبَهَا كَانَتْ
مَتَعَجَّرَةً ؛ أَفَلَا يَكْفِي قَلِيلٌ مِنْ حِكْمَةِ الرَّجُلِ ، لِيَكْفِكَفَ
مِنْ غَطْرِ مَسْتَهَا ، وَيَفْلَ مِنْ حَدَثِهَا ؟

أَلَا فَلَتَعْلَمُ أَنَّ شُعُورَكُمْ بِالْيَأْسِ مِنْ مُسْتَقْبَلِ الْفَتَاةِ الْمِصْرِيَّةِ
وَإِصْلَاحِهَا لَا يَسْتَنْدُ عَلَى شَيْءٍ ، وَأَنَّ هَذَا الشُّعُورَ الَّذِي يَغْرَى
بِالنُّومِ عَنِ الْأَخْذِ بِيَدِ الْفَتَاةِ إِلَى حَيْثُ مَرَّ كَزْهَا الصَّحِيحُ مِنْ
الْمَجْتَمَعِ ، لَيْسَ إِلَى وَطَنِكُمْ ، وَيَشُوهُ مِنْ جَلَالِ جِهَادِكُمْ ، وَإِنِّهِ
لَسَوْفَ يَعْطَى عَنْكُمْ لِأَبْنَائِكُمْ ، أَسْوَأَ الْأَمْثَالِ ، عَلَى أَنَّكُمْ
كُنْتُمْ تَمِيلُونَ إِلَى الدَّعَةِ وَالْخُمُولِ ، وَلَا تَجْشَمُونَ أَنْفُسَكُمْ عَنَاءً !

وإن الفتاة المصرية ، طالما ناشدتكم ؛ أن تدفعوا بها في سبيل
النور ؛ فقدتم بها في مجاهل الظلام ؛ وأن تعلموها كيف
تسمو وترقى في سماء الحياة ، فقصصتم جناحيها وأسفتم بها
الى الحضيض !!

ولست أدري الى متى تسومون المرأة العسف ، وعلى
شفاهكم بسمات الدعابة ؟ لا أعرف حياة مشوهة أضل من
حياتكم ؛ لقد تأفتم من المرأة السجينة . وناديتم بالحرية
وطالبتموها بالثقافة العامة فلبت نداءكم ؛ ونالت من التعليم
والثقافة والفنون حظا تغبط عليه ؛ ولكن سرعان ما زاعت
أبصاركم في الفضاء تخلقون بأجنحة الغرور الكاذب ، والوهم
الفاسد ، وبقيت العذارى في طريق الحياة حيارى ..!

ياسبحان الله ، ما بال صوتكم لا يكاد يبلغ حناجركم حتي
يرتد في جنبات ضمائركم حائراً ؟ وبينما أنا أندفق في ثورة
المؤمن قاطعني قائلاً : والآن ..؟

قلت : والآن لهف نفسي على « الطائر الحائر » يتردى

بين المعاطب والمخاطر ؟ إن الريح تعصف ولا تحاذر ،
والفصن يتكسر دون كاسر !!

لهف نفسي على العذارى ، يتعذب تحت نير الظنون أسارى
رموهن بالشوائب جهارا ، فاتخذن الحرمان لهن شعارا ؟
قال : ولكنك ، قلت : نائمة عليك وعلى الرجال جميعا من
أجلك ! قال : ولكنك أخت عطف ، قلت : على المغبونين
لا الغابنين ! قال : وأنا منهم .

فضحكت في تهكم مرير ، وقلت في عجب : أنت ؟
إنك لقوي جائر ، ولكنك وأسفاه لا تخجل من أن تصف
نفسك بما ليس فيك ، طمعاً في الوصول إلى غايتك ، ثم
شعرت بالشورة تكاد تعصف بكيانى ، والأسى يوشك أن
يفعم نفسي ، فاستويت واقفة ، حيث ودعت الأخت وألقيت
عليه تحية عجلي ؛ كأن لم يكن بيننا تعارف من قبل !

*
* *

ومرت الأيام سراعاً ، وحالت شواغلي دون زيارة الصديقة
وانتقلت أسرتنا الى بلد آخر ، فانقطعت عني أخبار الصديقة
وشقيقها ، وأسدت أنا أيضا الستار على هاته القصة ، فلقد
سئمت نفسي مناظرها المتناقضة ؛ وحوادثها المشيرة .

ولقد مر على عامان ، وأنا ساكنة الى دنيابي ، راضية
عنها ، لا يشغلني من هم هذه الحياة إلا هم نفسي ، حتى
اضطرتني الحر اللافح ، الى التزوج الى المصيف ، ترويحاً
للنفس وطلباً للاستجمام والحياة في المصيف غيرها في كل مكان
إنها حياة فرحة مريحة ، يكاد يفضل اليوم فيها عاماً بما يتوالى
على مسرحه من كثرة المرائي وتباينها وشدوذها ، هذا الشذوذ
الذي ينجم عن اختلاط الطبقات ؛ واجتماع المتناقضات ،
ولقد وقفت على الشاطئ في أمسية من أمسيات
المصيف الرائعة ؛ أشاهد الشمس وهي تهدف الى الماء ملقية
بنفسها ، بين أحضان إله البحر ، الذي يودعها في الصباح
ليلقاها في المساء . كما وقفت أتأمل الأمواج . تتجمع من بعيد

كالجبال . ثم تتراعى على أعطاف الصخور ، فأذا هي مستجيبة
الى رشاش سنى . وبيننا أنا أشبه فى نفسى فعل الأمواج مع
الصخور ؛ بالأم تغضب على ابنها ، ثم تهم لتعنفه أو تؤذيه
فلا تكاد تقترب منه حتى تستحيل هذه الغضبة . الى رشاش
من الرحمة والحنان . ووميض من الأشرار والابتسام . أجل
بيننا أنا مأخوذة بروعة البحر ، وجلال مشاهدته : طرقت
أذناى عن قرب ضحكة ساخرة ، يوقعها صاحبها على أوتار
الخلاعة والاستهتار ، فالتفت ورأى ، فأذا بى أواجه فتاة
جملتها يد الصناعة ، تسير الهوينى بجانب رجل هزيل الجسم
شاحب الوجه . لقد عرفته .. إنه « الطائر الحائر » صديق
الأمس . واستدرت بوجهى ثانية الى البحر ، كأنى لا أعرفه
ولكنه عرفنى كما بدالى من نظراته . ولعله خجل أن يحدثنى
ومعه رفيقته . وحمدت الله على أن تعود الاعتداد بالنفس ،
الا أنى لم اكده انتهى من وقفى ، وأخطو الى الأمام منصرفة
حتى طلع على ذلك « الطائر الحائر » منفرداً ، وبادرنى بقوله

أأنت هنا؟ فأجبت في جفوة : نعم ، ثم أسرع الخطأ ،
وتركته جانبا !

وفي مساء اليوم الثاني ، عدت الى مكاني على الشاطئ ،
وبيدنا أنا مستغرقة في تأملاتي وأحلامي ، لقيتني أخته لقاء
حاراً ، وأفهمتي أنها علمت بوجودي من أخيها ، وأنها قد
بحثت عني هنا طويلاً ، وبعد أن خضنا في ألوان من الحديث
وضروب من الذكريات ، حدثتني في مرارة عما آل اليه
حال أخيها من سوء ، وأن يأسه وبؤسه ، قد ملأ فراغ قلبه ،
وأنه قد برم بالحياة والعمل ، كما انقلب مستهتراً ، استهتار
من يود بعثرة وقته على أية صورة ! كانت تتكلم من أعماق
قلبها ، والدموع تطفرفي غير إهمال ، فحزنت حقاً لحزنها
وتصورت مصير شقيقها رهيباً !

يا لله إن نكبة المجتمع الخلقية ، تتولد من قنوط شبابها
إن الشباب لا يسف ، ولا يستسلم لنزوات نفسه الأماره
الا اذا جفت دونه مناهل الخير !

إنه مريض بلا مرء ، ولكن مصدره سوء تصرف الشاب
وجنوحه الى الحيرة العاطفية ، والقلق الوجداني ، فلو أنصف
الشباب نفسه ، لركز خواطره وأحلامه على محط الواقع ،
وحكم قلبه وعقله معاً في تكييف حياته المستقبلية ، ولا سبيل
إلى سعادة الرجل إلا إذا تسامى عن الرغبات الجامحة . ولو
علم أنه ليس وراء العبث العاطفي ، إلا كل شقاء وفقدان
للرجولة العزيزة ، لكف عن هذا الأسفاف !

وشاء ذلك الشقي إن ينتقم من المجتمع ، الذي قوض
صرح سعادته ، وأتى على آماله ، وأصابه في صحته وماله .
وكثيراً ما يدفع الأخفاق في الحياة الأشقياء الى الكنود
والتمرد - فراح ينشر على صفحات بعض المجلات كلمات هي
عصارة ذهن خرب ، لعبت على مسرحه أباطيل عمر طويل
وظل يكتب عاصفا بالأنوثة ، هاتكا حرمتها ، مشوها
كرامتها ، معتقداً أنها سبب هذا الانحلال الخلقي ، طالبا
من المجتمع ، أن يتدع شريعة تجيز مساواتها بالرجل في كل

شئ حتى يسرى عليها العقاب ، إذا عصفت بقلب ، أو
أشقت رجلا عن طريق إغراء كذوب أو خداع مرغوب !

قد يكون لهذا الشقى العذر فيما ذهب اليه من آراء
غريبة ، لأن المرأة هي التي قذفت به من حلق في هذا
الأتون المستمر ، وقد لا يكون له أى عذر ، لأنه لم يعرف
كيف يوجه عاطفته ، كما ترجو الأوضاع الصحيحة ، ولم يدر
كيف يمتخر بسفينه في عباب الحياة !

لقد ظل الطائر يسف تارة ، ويخلق أخرى ، متنقلا
من فنن إلى فنن ، بين وهاد الحياة ونجادهها ، حزنها وسهولها
وستمضى سنوه ، وتعبه موجة الأيام ، وهو كما هو « الطائر
الحائر » الذى يضرب فى مهمه هاته الحياة بجناحين خفاقين
حتى يشرف على الغاية ويبلغ النهايه ، فيلقى عصاه ويستريح !



✧ تصويبات ✧

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	١٢	مزهرا	مزهوا
٦	٩	وطلبت أن	وطلبت منها أن
٧	٣	مضجعة	مضطجعة
٢٢	١٠	قد تظهر	قد تطهر
٢٧	٨	ما شاء الله	حاشا لله
٣٦	٣	إذا أميل	إذ أميل
٤٦	٧	لم تنل	قد تنال
٤٧	١٧	تتحدد	تتعدد
٥٦	٩	يختلط	يخالط
٦٦	١١	يكون	تكون
٧٤	١٣	ترتفع الى	ترتفع بي الى
٧٤	١٤	ويطائن	ويطمئن
٧٨	١٥	وقفت	وفقت
٨٧	٢	صرامة	صراحة
٩٠	٢	شقاءه	شفائه
١١٦	٢	انتفت	انتقلت
١١٤	١٣	اندفق	اندفق

شكر

نشكر للأخوين النشيطين مصطفى ورياض محمد العادلى
صاحبي مطبعة ومكتبة وادى النيل بميت غمر ، ما لقيناه منهم
أثناء طبع هذه القصة ، من حسن المعاملة ، والمحافظة على
المواعيد ، والعناية بنظافة الطبع ، حتى خرجت القصة فى
هذه الحلة القشبية بفضل مجهودها المشكور

المؤلفة